الإفرنج في حلب

في القرن الثامن عشر

تعريب وشرح

وديع عبد الله قسطون

استاذ الأدب العربي والترجمة سابقاً

في معهد شمبانيا للاخوة المريميين

في حلب

أرشيف حلب الوطني بالتعاون مع الأستاذ فراس رحمو

مقاطع مترجمة من كتاب

الأخوين رسل

تاريخ حلب الطبيعي

مطبعة الضاد – حلب

اجازت
المديرية العامة للدعاية والأنباء
طبع هذا الكتاب
برقم ١٩٤ تاريخ ٢٤ / ١٠ / ١٩٦٨

اغلاط مطبعية يرجى تصحيحها

الصفحة	السطر	الغلط	الصواب
٧	١	جلير	جيلر
٢٣	١٣	Shakesbeare	Shakespeare
٢٤	٨	de Lessebs	de Lesseps
٣٨	١٧	جملوها	تملوها
٤١	١٢	مبنج	بنج
٤٥	١٣	حالت حبالها	حاكت حبالها
١٢٩	١٠	.	،

نطلب الى القراء الكرام أن يطالعوا هذه الصفحة ويصححوا الغلطات المشار اليها فيها قبل أن يبدأوا بقراءة الكتاب .

يُطلب الكتاب من واضعه
حلب - هاتف رقم ٢٣٨١٣

تصدير

بقلم

عبد الله يوركي حلاق

تتألّقُ الشهباء ، بمجدها الأدبي التليد، وبتاريخها الحافل بالعلوم والبطولات والصناعات النفيسة . فقد كانت هذه المدينة العزيزة ، تنافسُ كبريات المدن العربية ، بمن نبغ تحت سمائها الصافية ، من كتّابٍ وشعراء ورجالات الفكر والفنّ والصناعة والتجارة ، حتى قال فيها الرحّالة ابن بطوطة (١٣٠٤ — ١٣٧٨) (١) صاحب كتاب « تحفة النظّـــار في غرائب الأمصار وعجائب الاسفار » إنّ حلب « هي من المدن التي تصلح للخلافة » .

والحقّ ، أنّ حلب ، كانت تمتاز بموقع جغرافي جعلها ، قبل فتح قنـاة السويس ، أقصرَ طريق للقوافل التجارية ، بين الغرب والشرق الاقصى ، كما كانت تمتاز بهندسة البناء ، وبصناعة الورق والقاشاني والاسلحة الخفيفة وتطعيم الخشب والنحاس وحياكة الانسجة الحريرية والصوفية والقطنية مع رقّها وصقلها.

ومن الحقائق الثابتة ، ان معامل ليون الفرنسية ، أكملت صنـاعاتها الحريرية الثمينة ، بمحاكاة الانسجة الحلبية ، وأنّ الامير بشير الشهابي ، اول الامراء الشهابيين ، استعان على تشييد قصر بيت الدين ، بمهندسي حلب ، وبمهرة البنائين من ابنائها ، وانّ المنبر الجميل المنتصب في المسجد الاقصى ، والمصنوع من أرز لبنان ، والمرصّع بالعاج والصدف النادر ، قد تعاون على صنعه : ابنُ ظافر الحلبي ، وحميد بن ظافر ، وسليمان بن معالي ، وفضايل وابو الحسن ولدا

---

(١) يقول بعض المؤرخين إنه ولد عام ١٣٠٣

يحي الحلبي ، وكلهم من الحلبيين . وقد نُقِشت هذه الاسماء ، على مواضعَ مختلفة من باب ذلك المنبر . وكان نورالدين محمود بن زنكي (٥٦٤ هـ – ١١٦٨ م) قد أوصى بصنع المنبر المشار اليه ، ليُنْصب في جامع القلعة بحلب . ولكنَّ صلاح الدين الايوبي ، عندما استعاد بيتَ المقدس من الصليبيين (٥٨٣ هـ – ١١٨٧ م) ، وأمر باصلاح المسجد الاقصى ، قيل له : « إنَّ نورالدين محمود ، كان قبل عشرين سنة ، قد عمل بحلب منبراً ، لم يُعْمَل في الاسلام مثله » فأمرَ صلاحُ الدين باحضاره ، فحمل من حلب ونُصب في القدس ، وهو من أجمل المنابر الاثرية في العالم كلهِ (١) ، ومن أدقّها صناعة ، وأروعها فناً واتقاناً .

ولن نتصدّى في هذا التصدير ، الى وصف كلّ ما اتسمت به حلب ، في مختلف الازمان ، من سموٍّ واشراق ، ولكننا نقول : إنها نعمتْ بعصرين أدبيين زاهرين : الاول في عهد بني حمدان ، حين كان بلاط سيف الدولة الحمداني ، مباءة الادبِ والفنّ ، ومحجّةَ كبار العلماء ، وفحول الشعراء من امثال : ابي الطيّب المتنبي ، وابي فراس الحمداني ، وابي نصرِ الفارابي وابن خالويه وغيرهم من عباقرة ذلك الزمن .

أمّا العصر الذهبي الثاني ، فقد بزغت شمسه في حلب ، في مطلع القرن الثامن عشر ، حين انشأ الحلبيون اول مطبعة عربية ،انتجت في الشرق كله ، كتباً عربية بحروف عربية ، وحين توطّدت في هذا البلد ، أركانُ نهضة أدبية ، جعلت الشهباء مركز إشعاع فكري ، يُرسل انوارَ المعرفة الى كثير من بلاد الوطن العربي . وقد أربت مؤلّفات الحلبيين وحدهم في ذلك القرن ، على ما أُلّف وصُنّف في سورية ومصر والعراق معاً .

وقد سبق أنّ قلنا ، في غير هـذا البحث ، ونعود فنقول في هـذه المناسبة ، إنّ الحلبيين قد نشطوا في القرن السابع عشر ، والقرن الثامن عشر ،

---

(١) المؤرخ عارف العارف في كتابه « قبة الصخرة المشرفة والمسجد الأقصى المبارك ولمحة من تاريخ القدس ص ١٦٢ و ١٦٣

في مجالات التأليف والتصنيف والفنون اليدوية الرفيعة ، وان النهضة الادبية التي بسمت في لبنان ، فانتقلت الى مصر ، ونمَت وازدهرت في ربوع وادي النيل ، كان مبعثها من مدينة حلب .

ويروي السائح الفرنسي دورازل De Razel الذي زار الشهباء في منتصف القرن الثامن عشر ، ان حلب « اكبر مدينة تجارية في جميع بلاد السلطان » . ويؤيّده في ذلك مواطنهُ بوجولاد Poujoulat الذي زار المدينة نفسها ، فيقول : « إن حلب كانت في سنة ١٨٠٠ اهمَّ مدينـــة في المملكة العثمانية بعد القاهرة والآستانة » .

ومن الذين تحدّثوا عن حلب في القرن الثامن عشر ، بصدقٍ وصراحة واسهاب ، الطبيبان الانكليزيان الاخوان ألكسندر وباتريك رسل ، فقد تعاقبا في تطبيب الجالية البريطانية في الشهباء ، ستاً وعشرين سنـةً ، اي من عام ١٧٤٢ الى عام ١٧٦٨ ، فكان من الطبيعي ، ان يلمَّا في خلال هذه المـدّة الطويلة إلماماً تاماً ، بأحوال سكان هذا البلد ، وبمختلف عاداتهم وتقاليـدهم ، وبكثيرٍ من شئونهم الحياتية والاجتماعية والثقافية .

وخدمةً للحقيقة والتاريخ ، دوّن الاخوانِ رسل ، انطباعاتهما عن مدينتنا ، وعما لقياهُ فيها من اوضاع وأعراف ومظاهر ، في كتابين ضخمين نفيسين من القطع الكبير ، صدرا في طبعتين متقنتين : ظهرت الطبعةُ الاولى منهما في لندن سنة ١٧٥٦ ، والثانية في لندن ايضاً سنة ١٧٩٤ . وقد لقيت هاتانِ الطبعتان ، اوفر قسطٍ من الاقبال والاعجاب ، وصارتا تُعدّان من الكتب التاريخية النادرة .

وأعجب صديقنا الاديبُ الالمعي الكبير ، الاستاذ وديع قسطون ، بكتابي الاخوين رسل ، فأكبَّ على تعريب كثيرٍ من فصول طبعتهما الثانية ، باسلوبه السلس ، وبيانه النضيد ، وبلغته العربية البليغـة . وكان من حسن حظ مجلتنا « الضاد » ، أنْ خصَّها الاستاذ الوديع — بعد جلاء الفرنسيين

عن سورية ، واعلان استقلالها الناجز التام في عام ١٩٤٦ — بطائفةٍ ممتعة مما اختاره وعرّبه من كتاب رسل .

وكثيراً ما ألحّ الاصدقاء والقرّاء على الاستاذ قسطون ، أن يجمع ما عرّبه في كتابٍ يضيف اليه ما يراهُ مهمّاً من الموضوعات المتعلقة بتاريخ مدينتنا الحبيبة ، فلم يضنّ استاذنا الكريم ، على قرّائه واصدقائه وقادري علمه وفضله ، بما طلبوه . وها هو يضعُ بين ايديهم، هذا الاثرَ الادبي والتاريخي القيّم.

ونحن لا نعدو الحقيقة ، إذا قلنا إن الاستاذ وديع قسطون ، قمّةٌ من قمم العلم والادب والفكر ، ليس في حلب وحدها ، بل في سائر الاقطار العربية ، فهو يعمل بصمتٍ وسكون واخلاص لامّته وللغته ، ويبتعد كلّ البعد ، عن الاضواء والاطراء ، ويكره ما يحبّهُ كثير من الكتّاب ، من الدعاية لانفسهم ، ومن الاعلان عن نتاج اقلامهم .

والذين يعرفون استاذنا الموأ اليه ، يؤكّدون أنّهُ اسمٌ على مسمّى في وداعته ورقّةِ طبعه ، وانّه مثالٌ عالٍ للانسانية الصافية ، والتواضع الجمّ ، وحبّ الخير والمعروف ، والتمسّك بأهداب الدين والفضيلة . فهو لا يدخّن ، ولا يشرب مسكراً ، ولا يرود المقاهي والملاهي ، ولا يطمع في مال ، ولا يتطلّع الى جاه ، ولكنّهُ من عشّاق المطالعة والكتابة ، ومن محبي السهرات العيلية على الطريقة الحلبية القديمة المتسمة بالادب والطرب واللهو البريء .

وبفضل توقّد ذكائه ، واستمرار دراساته ، وكثرة مصاحبته للكتب والمعاجم ، استطاع ان يتعلم عشر لغات حيّة هي بحسب درجة تمكنه منها ، نزولاً من الاتقان الى الالمام : العربية فالفرنسية فالانكليزية فالتركية فالالمانية فالايطالية فالعبرية فاليونانية الحديثة فالاسبرانتو فاللاتينية .

ولاستاذنا الجليل ، ماضٍ مشرق بالجهاد التربوي والادبي والوطني . فقد وُلِدَ في بلدة اورفا (الرها) عام ١٨٨٢ من أبوين حلبيين ، وكان جدودهُ قد انتقلوا اليها من حلب للتجارة ، ولتجارة الصابون بوجه خاص ، بدليل

انهم كانوا يلقّبون فيها بـ « مصبنه جلبر » اي اصحاب المصبنة . وكان والده عضواً في مجلس ادارة اورفا ، وكان له فيها خانٌ يُعرَف بـ « الدولك » أي مربط الجمال ، وقريتان : إحداهما في قضاء سروج ، والثانية في قضاء حرّان .

وقد ولد صاحبُ هذه الترجمة ، بعد وفاة ابيه عبدالله بثلاثة اشهر ، وبعد مولد اخيه البكر فتح‌الله ، بسنةٍ ونصف السنة ، فعادت بهما أمُّهما — وهي حلبية من اسرة سمّان ، وابنة عمة ابيهما — الى حلب ، حيث سكنوا في حي الشرعسوس .

وفي مدرسةٍ ابتدائية صغيرة ، كانت في فناء كنيسة مار جرجس بالشرعسوس ، تلقّى الطفل وديع وشقيقه الاكبر فتح الله ، مبادىء القراءة العربية والخطّ والحساب ، ثم انتقلا منها الى مدرسة السريان الكاثوليك ، واخيراً أكملا في مدرسة الروم الكاثوليك ، دروسهما الاعدادية ، وأصابا حظاً صالحاً في اللغات : العربية والفرنسية والتركية ، فضلاً عن التاريخ والجغرافيا والحساب .

وكان الاخوانِ قسطون ، من أنجب رفاقهما الطلاب ، واكثرهم ذكاءً واجتهاداً . وحينما تخرّج المترجم له من تلك المدرسة في عام ١٩٠١ ، حمل معه جائزة الشرف ، وهي أعلى جائزة كان يحملها التلميذ المتفوّق في دروسه كافّةً .

ودخل الاستاذ وديع قسطون ميدانَ الحياة العملية ، فأثبت فيها كفاءة وأمانة رفعتاهُ الى رئاسة دائرة المحاسبة بالنيابة ، في شركة اميركية بريطانية كبيرة ، كانت تتعاطى التجارة بعرق السوس بحلب ، وتتولّى نقله الى الولايات المتحدة الاميركية .

وبسبب عمل الاستاذ قسطون في هذه الشركة ، أمر جمال باشا السفّاح ، في أواخر تشرين الاول ١٩١٧ ، ان يُنفى مع جميع زملائه العرب الموظفين في الشركة المذكورة ، الى قونيه (من بلاد الاناضول) حيث قضوا اربعةَ اشهر ، وهم عرضةٌ للبرد القارس ، والغربة الموحشة ، والاهانات المؤلمة .

ولما عاد الاستاذ وديع الى وطنه ، أسس مع اخيه وشريك ثالث مطبعة ومكتبة عصريتين . ولم تمضِ فترةٌ وجيزة ، حتى اشتهرت هذه المطبعة بطبع الكتب النادرة ، كالابجدية الجركسية ، وهي أول ابجدية طُبعت بهذه اللغة ، وكتاريخ الاكراد باللغة الكردية . وكان كبارُ ادباء حلب ، كالعلامة قسطاكي الحمصي ، وكالشاعر عمر ابو ريشه ، يطبعون كتبهم في هذه المطبعة ، فتخرج بعناية الاخوين قسطون ، خاليةً من الاغلاط المطبعية ، مزدانةً بأبهى حلل الجودة والنظافة والاتقان الكامل .

وأمام ما أحرزه الاستاذ وديع من قدرةٍ علمية وادبية وتربوية بارزة ، عهدت اليه كبريات المعاهد الثانوية في حلب ، ان يتولّى فيها تدريسَ الادب العربي والترجمة . وقد درّس هاتينِ المادتين في معهد شمبانيا للأخوة المرسيين ، وفي المدرسة الكبرى للروم الكاثوليك . وقد اصبح عدد من تلاميذه وزراء ونوّاباً وشعراء وقضاة ومحامين ومهندسين ، بفضل ما غرسه في نفوسهم ، من حبّ الوطن والعلم والعروبة . ولا عجبَ ، فان هذا الاستاذ مثاليٌّ في اخلاقه وعلمه وطراز عيشه وحسن معاملته للناس جميعاً .

وفي سنة ١٩٢٠ ، تعاون الشقيقان فتح الله ووديع قسطون ، على إصدار مجلةٍ أدبية اجتماعية شهرية سمّياها « الشُعلة » ، وجعلاها ميداناً تتبارى فيه اقلامُ الكتّاب والشعراء . وقد احتلّت هذه المجلة ، مكانةً مرموقةً في عالم الصحافة ، وكانت بحقٍّ شُعلةً متقدةً بأضواء الفكر الخلاّق ، ومتلألئة بأشعة العلم والفن .

ومما يؤسف له ، ان مجلة الشعلة ، لم تعش اكثر من سنتين ، انصرف بعدها الاخوانِ قسطون ، الى كتابة المقالات ، والقاء المحاضرات ، وترجمة بعض المسرحيات ، ووضع عدد من اثمن المؤلفات . وقد عرّب استاذنا الوديع مسرحية « غليوم تل » للشاعر الألماني شلر ، ترجمها عن الفرنسية ، كما ترجم عن الانكليزية كتاباً طبياً عنوانه « اسرار الجمال » نُشر تباعاً في مجلة « العروس »

لصاحبتها ماري عجمي. ومن مترجماته المخطوطة كتيّبان طبيان عرّبهما عن الانكليزية: احدهما في الزكام، وثانيهما في امراض الحمض البولي (الروماتيزم واضرابه) وطريقة معالجتها بوسائل الطبّ الطبيعي.

والأستاذ وديع، شعر قليل لم يُنشر منه شيء، نظمه بعد الاربعين من عمره. ومعظم نظمه لا كله، مما يُعرف بشعر المناسبات. وقصائده لا تتجاوز الخمس عشرة، بين قصيرة وطويلة. وقد جمعها في دفترٍ صغير منسقة بحسب تواريخها، وقدّم لبعضها بشرح الاسباب التي دعت الى نظمها.

والمعروف ان استاذنا هذا، شديد العناية والاهتمام، بكلّ ما يبديه من اعمال، وميله قويٌّ وفطري، الى النقد الادبي، فعندما يُطالع كتاباً عربياً او اجنبياً، يملأ اطرافه وحواشيه، بالملاحظات والانتقادات. وقد رأينا في مكتبته الخاصة الغنيّة بنفائس المطبوعات، أمثلةً من ملاحظاته القيّمة وانتقاداته النزيهة، دوّنها على عدد من الكتب، منها كتاب «ادباء العرب» لبطرس البستاني، و«فلسفة التمدن» المطبوع باللغة الانكليزية.

وإنّ ابرز ما تلمسه في كتابة الاستاذ قسطون، أنّ انشاءه على طراز واحد، هو من السهل الممتنع. وانك لتجد في هذا الكتاب الذي بين يديك مثالاً على ذلك، في النبذة التي كتبها عن تاريخ الانكشارية، فقد تألّفت من مصادرَ متعددة، منها ما هو مترجم من كتاب كولاس الفرنسي، ومنها ما نُقل من تاريخ «نهر الذهب» للشيخ كامل الغزّي، ومنها ما اقتُبس من مصادر اخرى. ومع هذا، فالعبارة واحدة، والبيان واحد وضّاء جذّاب. ولا غرابة، فقد صبّ الاستاذ وديع كلّ ذلك، في قالبٍ عربيٍّ صحيح فصيح، تام الارتباط والانسجام، خالٍ من التعقيد والابهام، حتى ليستحيل عليك، ان تميّز فيما تقرأ، بين المترجم منه والمنقول والموضوع.

ولعلّ أروعَ ما ترجمه الاستاذ وديع وشرحه وعلّق عليه، هو كتاب «الافرنج في حلب في القرن الثامن عشر». ففي هذا الاثر التاريخي الاجتماعي،

تتجلّى روعة الترجمة بأجلى مقوّماتها ، وتتضح بلاغة التعبير بأجمل صورها ، وأكمل معانيها ومبانيها ، ويشدّك سياق الحوادث ، الى مطالعة الكتاب كله ، شدّاً رفيقاً محبباً الى النفس ، مغرياً بالافادة مما دار تحت سماء الشهباء قبل قرنين من الزمن .

وعندي ، أنّ هذا الكتاب ، خير ما انتجته مطابع حلب من الكتب المعرّبة . ولا بدعَ ، فقد عرف معرّبهُ ، كيف ينتقي الموضوعات الشيّقة ، من كتاب انكليزي ، تعدّدت مواده ، وكثرت صفحاته ، وكيف يلائم بين ذوق القارىء العربي ، وبين ما اختاره من ابوابٍ وفصول ، تستهوي الحلبيين وغير الحلبيين من محبي التاريخ ، ومن الراغبين في الاطلاع على ما كان سائداً في حلب ، في زمن الشقيقين الطبيبين ألكسندر وباتريك رسل .

ومما لا ريبَ فيه ، ان كتاب رسل ، قد نال شهرةً ذائعة في جميع انحاء العالم . حتى أن عشرات من الجامعات والمكتبات ، ومئات من المؤرخين والمحققين وعشّاق الكتب النفيسة ، ألحوا على أكبر دار للنشر في انكلترا ، ان تعيد طبعه . وحيال هذا الالحاح المتزايد والمستمرّ ، بدىء بطبعه . وفي هـــذا ، برهان ساطع على قيمته التاريخية ، وعلى مكانة حلب في قلوب المثقفين الغربيين ، الذين يعلمون ما كان لمدينتنا من عظيم الشأن ، في مضامير العـــلم والادب والصناعة والتجارة والفنون الجميلة .

جزى الله الاستاذ وديع قسطون كلّ خير ، على ما أدّاه للغته ووطنه ، ومدّ في حياته الغالية ، ليزيد ادبنا ثراءً ورواء ، وليتحفنا بأمثال هذه الروائع الخالدة على الدهر .

عبد الله يوركي حلاق

منظر عام لمدينة حلب في القرن الثامن عشر منقول عن صورة زيتية

المقدمة

في الحقبة الواقعة بين كانون الثاني سنة ١٩٤٦، وحزيران سنة ١٩٥٣، كنا قد نشرنا، في مجلة الضاد الحلبية، سلسلة من المقالات، بعنوان « الافرنج في حلب في القرن الثامن عشر » اقتبسنا معظمها من الكتاب الكبير الذي وضعه الطبيبان الانكليزيان الاخوان (رسل) عن حلب. وكان هدفنا من نشر تلك المقالات الاعلان عن كتاب لنا، بالعنوان المذكور، نعتزم اصداره بعد الانتهاء من نشر تلك المقالات في المجلة، مباشرة.

ثم عرضت لنا شواغل ومشاكل حالت دون تحقيق المراد في حينه، وقضت بأن يؤجل صدور الكتاب الى هذا اليوم.

أما وقد اصبح الكتاب بين ايدي القرّاء، فلا نرى مندوحة من ان نقول فيه كلمة تجمل مواضيعه، وتحدّد معالمه، وتوضح التلاحم القائم بين اجزائه وفصوله، وتسهّل فهمه على قارئيه.

فالكتاب بذيليه، وكما يدل عليه عنوانه الكامل، لا يقصر ابحاثه على الافرنج، بل يتجاوزهم الى مواضيع شتى، كلها مترابط

بذلك الموضوع الرئيسي ، في شبه دوحة ، تفرَّع منها غصنان كبيران ، وتفرَّع من كلّ من الغصنين عدَّة افنان : اما الدوحة : فموضوع « الافرنج في حلب في القرن الثامن عشر » .

واما الغصنان ، فأحدهما : « موضوع الطاعون » ، وثانيهما ، « موضوع الولايات العثمانية » وقد تفرَّع من الغصن الاول ، الافنان التالية :

وصف الطاعون الدمَّلي الذي اجتاح حلب ايام اقامة الطبيبين الاخوين فيها ، وخطة سير ذلك الوباء المعتادة ، وطريقة معالجته ، والنظام الذي استسنَّه الافرنج لتوقي عدواه (ثم النبذة الشاملة لتاريخ ذلك الوباء الوبيل) .

وتفرَّع من الغصن الثاني ، الافنان التالية :

الحديث المسهب عن الولايات العثمانية ، ونظام الحكم الذي كان قائماً فيها حتى عهد التنظيمات ، فطريقة تعيين الولاة وسرعة عزلهم ، فالكلام على الانكشارية وتاريخهم المليء بالمآسي والمخازي . ثم الحديث الخاص بولاية حلب في القرن الثامن عشر ، وما تبعه واشتقَّ عنه من الكلام على رجال الحكم فيها ، وعلى السادات ، وعلى

الآغاوات ، وعلى حياة القرى ، وعلى التجار والصناع ، وعلى العقوبات بمختلف انواعها ، الخ الخ .

وجميع هذه المواضيع طريف ، مثير ، مفيد . وهي ، في معظمها ليست إلاّ تعليقات على الابحاث الجارية ، قلّدنا فيها (رسل)، بفارق انّا ، لضآلة حجم كتابنا ، ادخلنا هذه التعليقات في صلب كتابنا ، وجعلناها من متممات فصوله ، بينما جعل منها (رسل) لضخامة حجم كتابه ، ملحقات جمعها في آخر كلّ من جزئي كتابه ، ليطالعها من يهمّه موضوعها .

هذا ، واذا اضفنا الى ما تقدّم ، ما في كتابنا من تنوّع وتفنن ، وما انتثر في صفحاته من قصص ونوادر ، وما ذيّلت به تلك الصفحات من شروح وايضاحات ، وما تحلّت به من رسوم اثرية ، وتحف فنية ، كان لنا منه مجموعة فذّة جمّة الفوائد ، يتعذّر الحصول على مثلها في غيره مما هو في مثل ضآلة حجمه وثمنه .

وربع قسطون

مقدمة ثانية

التعريف بمؤلف الطبيبين الانكليزيين الاخوين « رسل Russell »

عن حلب

أول ما نستهلّ به مقدمتنا تقرير حقيقتين أساسيتين تتعلقان بعنوان الكتاب، وتحوم حولهما الشبهات والاوهام.

اولاهما أنّ « التاريخ الطبيعي » المعنون به الكتاب في نصه الانكليزي: « The Natural History of Aleppo » ليس إلاّ تعبيراً عالمياً، غربياً، لما اصطلح حكماء العرب على تسميته « بعلم المواليد » وهي « المعدن والنبات والحيوان ».

والثانية ان كتاب « رسل »، الذي يسمّيه بعضهم، ومنهم المرحوم الشيخ كامل الغزي بتاريخ حلب، ليس تاريخاً لحلب بالمعنى الصحيح المعروف، فهو لا يتحدث عمّا كانت عليه المدينة في غابرات أيامها، بل يصف ما كانت عليه، هي ونواحيها وسكانها، في الحقبة التي أقام فيها واضعا الكتاب، وهي تنحصر في منتصف القرن الثامن عشر، ولا يغيّر هذه الحقيقة تطرّق الكتاب الى التاريخ في بعض الحواشي والذيول.

ويجب ان نضيف الى ما تقدّم اننا ، وان جهلنا الأسباب التي حملت المؤلفين النطاسيين على اختيار ذلك العنوان العلمي لمؤلفهما ، لسنا نراه اليوم وافياً بالغرض الذي قُصد منه ، كعنوان ، لاقتصار هذا العنوان على مواضيع معيَّنة من الكتاب ، في حين كان يجب ان يشملها كلها دون استثناء .

لذلك نرى ، دفعاً لكل سوء فهم ، ان نتخلّى عن العنوان المتقدم الذكر عند الاشارة في حديثنا الى الكتاب موضوع البحث ، وان نكتفيَ بتسميته « بمؤلف رسل » فقط . أما اذا اردنا ان نتوسع في الاشارة ، بان نشمل ، في العنوان ، الموضوع والمكان والزمان ، كما فعلنا في كتابنا ، قلنا مثلاً :

« الافرنج (او المسيحيون ، او اليهود ، او سواهم ممن يخصهم الكتاب بالذكر) ، في حلب ، في القرن الثامن عشر » . وهذا فيما نرى ، خير عنوان (لمؤلف رسل) الكبير ، واصدقه ، واوضحه .

★ ★ ★

بعد هذا البيان الذي لم يكن منه بدّ ، ننتقل الى التعريف بالمؤلف المذكور فنقول :

انه لأثر نفيس ، وتحفة نادرة ، ولعلنا لا نعدو طور الحقيقة

ان نحن ادّعينا انه اوسع مؤلَّف وُضع في لغة غربية او شرقية، عن مدينة معيَّنة، في عصر معين من عصورها، سواء أكان من حيث شمول الابحاث لكل نواحي الحياة في هذه المدينة، ام من حيث التقصّي في درس تلك النواحي المختلفة منها، فتعزيز الآراء الموردة بشأنها بشهادات ممن سبقوا الى معالجة تلك المواضيع، ثم نشر تلك الشهادات بنصوصها الحرفية في اللغات التي صدرت فيها.

تعاون على وضع هذا المؤلف الفريد طبيبان اخوان من اسرة (رسل) الانكليزية، أقاما في حلب يتعاقبان في تطبيب الجالية التجارية البريطانية فيها، من سنة ١٧٤٢ الى سنة ١٧٦٨. واسم الكبير منهما «الكس = Alex» او اسكندر، والصغير «بات = Pat» او باترك.

ولمؤلفهما هذا طبعتان: طبعة أولى ظهرت في لندن سنة ١٧٥٦، وطبعة ثانية صدرت في لندن ايضاً سنة ١٧٩٤.

اما الطبعة الاولى فقد انفرد في وضعها الأخ الأكبر (الكس) وهو الذي تولى تطبيب الجالية المتقدم ذكرها من سنة ١٧٤٢ الى سنة ١٧٥٣.

والطبعة الاولى هذه مجلد واحد، كبير الحجم (٢٤ × ٣٠ سم)

يقع في نحو مائتين وستين صفحة مطبوعة طبعاً متقناً، بحرف كبير جليّ، على ورق خشن كان يعرف بالعبّادي. وتزيّن الكتاب بعض الرسوم الانيقة، منها ما يمثّل رجال الحكم الثلاثة: الوالي والسردار (رئيس الانكشارية) والقاضي، في جلسة انس، وقد ارتدوا الفراء الثمين، وتربّعوا على الارائك الفاخرة، في قاعة من قاعات حلب القديمة الشهيرة (كما يظهرون في الرسم المنشور في موضعه من هذا الكتاب).

وهناك رسمان آخران كبيران: أحدهما رسم سيدة نبيلة، وقد ارتدت الثياب الحلبية الانيقة، وتحلّت بعقود اللؤلؤ، وهي تدخّن الغليون. والثاني رسم يمثل ارباب الطرب وفي ايديهم المعازف، من طنبور وناي ورباب ودف ونقّارة، وقد لبس كل منهم اللباس الخاص بطبقته الاجتماعية ومذهبه، وقد أدرجنا هذين الرسمين في الفهرس العام. وفي الكتاب رسوم متعددة، متقنة الصنع، لأصناف من الماشية، والطير، والسمك، والنبات، مما لا عهد للافرنج بها، على ما يُظن.

والطبعة الاولى هذه، على ما فيها من فوائد طبيّة، وابحاث علمية، ووصف للكثير مما تهمّ معرفته من احوال حلب الطبيعية والاجتماعية، يعوزها التبويب والتنسيق، ويعيبها الايجاز والاقتضاب

فيما كان يقتضي الاسهاب والاطناب . وما كانت هذه العيوب بخافية على المؤلف ، فقد اشار اليها في مقدمة كتابه ، ولكنه عزاها الى تعجّله في اصدار الكتاب ، ووفرة المشاغل التي فاجأته في وطنه ، بعد عودته اليه ، فحالت دون مراجعة مسوّداته قبل تسليمها الى المطبعة .

ومع ذلك فقد لقي الكتاب ، على علاّته — كما يقول واضعه — إقبالاً لم يكن يتوقّعه له ، وهو ما شجّعه على اعادة طبعه لاخراجه فيما يليق به من حلل الاتقان والكمال .

ومن هنا ولدت الطبعة الثانية (وهي التي تعنينا وعليها اعتمدنا في الكثير مما نشرناه في كتابنا عن حلب) . ولقد تحوّلت هذه الطبعة ، بفضل التبويب والتنسيق ، والتوسّع في الابحاث ، والعديد من الاضافات والمُلحقات ، تحوّلت الى مجلدين كبيرين ، يقع كلٌّ منهما في اربعمائة وستين صفحة كبيرة من صفحات الطبعة الاولى . واما الورق والتجليد ، وحروف الطبع ، والرسوم ، فقد بقيت على ما كانت عليه في تلك الطبعة ، إلاّ رسمين أضيفا الى صدر المجلد الاول ، أحدهما مخطط لمدينة حلب ، والآخر منظر عام لها ، منقول عن صورة زيتية (وقد نشرنا هذه الصورة في صدر كتابنا هذا) وناشر هذه الطبعة الثانية المنقّحة ، المنسّقة ، وواضع كل ما فيها من ملحقات

CHAP. III.

and much uſed in confection. Two varieties of apricots, one common, of an inferior quality, and eſteemed leſs wholeſome[59], the other a beautiful well flavoured fruit[60] with a ſweet kernel. Peaches[61], which though not of the enormous ſize of thoſe of Tripoly, nor ſo highly flavoured as in ſome other parts of the world, are a delicious fruit when permitted to ripen, but the natives are fond of them when unripe, and great quantities are alſo gathered in that ſtate to be preſerved in ſugar. Sundry varieties of plumbs[62], [63] one of which[64] is ſuppoſed to be the fruit on which the Beccaficos principally feed. Two or three varieties of apples,[65] of very indifferent quality. Pears,[66] tolerably good. Quinces,[67] leſs juicy than in France. Cornelian cherry[68], almonds[69], walnuts[70], and hazel nuts[71], jujubes[72], and ſumach[73];

[59] Miſhmooſh مشمش — Prunus Armeniaca Linnæi.
[60] Miſhmooſh louzy شمش لوزي — P.
[61] Dirrak دراق — Amygdalus Perſica.
[62] Ajaz اجاس — Prunus.
[63] Houh حوح — P.
[64] Kulb al Tair قلب الطير — P.
[65] Tuffah تفاح — Pyrus Malus.
[66] Injaz انجاص — Pyrus Communis.
[67] Sfirjle سفرجل — Pyrus Cydonia.
[68] Kirrafic قراصيد — Cornus Mas.
[69] Louz لوز — Amygdalus Communis
[70] Jouz جوز — Juglans Regia.
[71] Binduck بندق — Corylus Avellana.
[72] Anab اناب — Rhamnus Ziziphus.
[73] Simmak سماق — Rhus Coriaria.

the

صورة زنكوغرافية لصفحة من صفحات الكتاب
التي تظهر طريقة المؤلف في الشرح والتعبير

واضافات ، هو الدكتور (بات رسل) عضو الجمعية الملكية البريطانية [1] ، والأخ الاصغر ، كما تقدم القول ، للدكتور الكس ، ورفيق جهاده العلمي في اواخر ايامه في حلب ، وخليفته في تطبيب الجالية البريطانية فيها بعد انفصاله عنها .

ومن محاسن هذه الطبعة الثانية ، أن معظم ما فيها من اسماء المباني والآثار ، واسماء الامتعة والملابس ، واصناف الطعام ومواعينه ، وادوات الزينة واللهو والطرب ، واسماء الوظائف والحرف ، واسماء البهائم والطيور والاسماك والحشرات ، واسماء الأثمار والبقول ، جميع ذلك قد طبع ، في المتن ، باسمه الانكليزي ، وطبع في ذيل الصفحة باسمه العربي ، مرسوماً بالحرف العربي ، وبجانبه لفظه بالهجاء الانكليزي ، ثم مرادفه في اللغة اللاتينية في الغالب (وفي كتابنا صورة زنكوغرافية لصفحة من الصفحات المشار اليها) .

ومن المبتكرات التي تشهد لواضعها الدكتوربات بطول الباع في فني النشر والتأليف ، انه خصّ ذيول الصفحات بالتفاسير المقتضبة والحواشي القصار ، وبما يمسّ منها الموضوع مباشرة .

واما المواضيع الثانوية ، والتعليقات المسهبة ، التي لا تتسع لها

---

(١) Pat. Russell M. D. and F. R. S.

تلك الذيول ، او التي قد تصرف بطولها ذهن القارىء عن متابعة البحث « وقد لا تهمّه مطالعتها » ، فقد افرد لها مكاناً في آخر المجلدين، وجعل لكل تعليق ، في الملحق ، رقماً رومانياً متسلسلاً اثبته ايضاً في ذيل الصفحة التي جاء فيها النص موضوع التعليق .

وان من يطالع تلك الملحقات الطوال ، والشروح الضافية ، وما تضمّنته من ابحاث علمية ، وفوائد فنية وملاحظات دقيقة ، ونقد وتفنيد ، واخبار وروايات ، لا يسعه الا ان يُكبر قدر واضعها ، ويطرىء علمه واجتهاده وطول اناته (وفي كتابنا صورة زنكوغرافية لصفحة من صفحات التعليق المشار اليها) .

ولا بدَّ لنا أن نضيف ان هذه الطبعة الثانية قد اقتضت ذلك الطبيب الهمام جهوداً استمرَّت اربعة عشر عاماً ، اختلسها من ربيع عمره ، ومَرَح شبابه ، ومن القصار من ساعات فراغه ، ليقفها على الدرس والبحث ، والمراجعات والمقابلات ، وتحبير الرسائل الطوال في الاغراض التي كان يحددها له اخوه ، الحبيب الى قلبه ، وكان قد بعث اليه بنسخة من كتابه ، بُعيد صدوره ، ارفقها برسالة طلب اليه فيها ان يدرس الكتاب دراسة الناقد الممحّص ، ويصلح كل شائبة فيه ، ويكمّل كل نقيصة ، لتجيء الطبعة الثانية منزَّهة عن كل

The paſſages produced by Schultens ſhow the ἀλαλάζω, and ἀναλαλάζω, uſed preciſely on thoſe occaſions that the correſponding word Wulwal would have been uſed in Arabic. In the paſſage from the Evangeliſt, our Saviour upon entering the houſe of Jairus "ſaw the tumult "and them that wept and wailed greatly" for they believed that the girl had juſt before expired Καὶ θεωρεῖ θόρυβον, κλαίοντας καὶ ἀλαλάζοντας πολλά. Mark v. 38. which in the Arabic Teſtament is rendered thus, و نظر اضطرابًا و قوماً يبكون ويولولون كثيراً Mark xvii. 38.

The inſtance brought from Plutarch is alſo clearly to the point. On the day of Cæſar's death, while Portia anxiouſly expected news from the Capitol, ſuch was the agitation of her mind that ſhe at length fell into a fainting fit. Her maids aſtoniſhed, and from her paleneſs conceiving ſhe was dead, behaved juſt as the Arab women would have done, they raiſed the Wulwaly αἱ δὲ θεράπαιναι πρὸς τὴν ὄψιν ἀνηλάλαξαν. Plutarch, (Brutus, Tom. i. p. 991. Folio, Francofurt. 1520.)

The extravagant conclamation of the women at funerals, is mentioned by Cicero as prohibited by the twelve tables. "Tollit etiam Lamenta-"tionem. Mulieres genas ne radunto, neve Leſſum funeris ergo ha-"bento. Hoc veteres Interpretes Sex. Alius, L. Acillius non ſatis ſe in-"telligere dixerunt, ſed ſuſpicari Veſtimenti aliquod genus funebris: L. "Alius Leſſum quaſi Lugubrem Ejulationem, ut Vox ipſa ſignificat. "Quod eo magis judico verum eſſe quia Lex Solonis id ipſum vetat." Cicero (de Legibus, lib. ii. p. 23. Opera Omnia 4to. Amſtelæd. Verburg. 1724. Tom. iv. p. 1225.)

Again, "Ingemiſcere nonnunquam Viro conceſſum eſt idque raro: "Ejulatus ne mulieri quidem. Et hic nimirum eſt fletus (Leſſus M. S.) "quem Duodecim Tabulæ in funeribus adhiberi vetuerunt." (Tuſc. Diſput. lib. ii. p. 23. ut ſupra, p. 174.) Vide Plutarch (Solon, Tom. i. page 90.)

The Wulwaly of the Turkiſh and other women of the Eaſt, (for it is common to the Chriſtians and Jews) is ſometimes no more than an inarticulate ſcream or howl, but the interjection Weil ويل or the words ya Weily! ياويلي are commonly interſperſed. The chief mourner, or elſe the women employed on purpoſe, the Nouaha, نواحة (θρηνῶν Ἐξάρχοι or Πενθήτροι of the Greeks, the Præficæ of the Romans) repeats ſome plaintive words, interrupted with ſobs and tears, then, ſtriking her breaſt, ſhe ſcreams wildly, and the other women join in the Wulwaly, as if it were

 the

صورة زنكوغرافية لصفحة من صفحات الكتاب التي تظهر الشروح
بلغاتها الاصلية من يونانية ولاتينية وعبرية وغيرها

عيب ، قريبة الى الكمال ما أمكن . وفي رأينا أنها جاءت كما تمنّى ، بل فوق ما تمنّى .

ولعل « بات » كان ثابر على عمله المرهق مدة اطول لو لم يفاجأ، سنة ١٧٦٨ ، بنعيّ أخيه العزيز الكس . فقد كان لتلك الصدمة القاسية وقعها الاليم في نفسه ، واثرها البعيد في مستقبل حياته ، إذ حملته على الاستقالة من عمله في حلب ، والعودة الى مسقط رأسه ، بعد جولات طوال قام بها في ربوع الغرب طلباً للسلوى ونسيان المصاب ، وكان من نتائجها تأخر صدور الطبعة الثانية الى سنة ١٧٩٤.

اما المواضيع التي عالجها الكتاب في طبعته الثانية « وهي التي اشتملت عليها المخطوطات التي خلّفها الأخ الراحل » فقد قسمها « بات » الى ستة ابواب ، وزّعها بين مجلديه الاثنين ، على ما هو مبيّن في الفهرس العام ، الذي ألحقناه بهذا الكتاب ، وفيه ما يغنينا عن الشرح والتفصيل .

ولما كانت الرسوم أجلى بياناً ، واوضح تعبيراً من الألفاظ والحروف ، فقد رأينا ان نستعين بطائفةٍ منها على دعم ما ذهبنا اليه في تعريفنا بالمؤلف المشار اليه .

والرسوم التي انتقيناها بعضها منقول عن المؤلف نفسه ،

وبعضها صور زنكوغرافية لصفحات منه ، وبعضها الآخر رسوم ايضاحية لمواضيع مختلفة ، تناولناها بالبحث في كتابنا ، وهي ليست من المؤلف المذكور .

* * *

وبعد ، فلا غروَ ان يتساءل القارىء : تُرى ما الذي حدا بهذين الطبيبين البريطانيين الى وضع مؤلفهما الكبير عن هذه المدينة الغريبة ، النائية ، التي لا تمتُّ اليهما بصلة ؟ ثم ما الذي زيّن لهما ، خاصةً ، ان يعيدا طبعه ، ويتجشما ما تجشّماه من عناء في تنقيحه والتوسّع فيه على النحو الذي فعلا ؟ أحبّ العلم وخدمته ؟ ام خدمة ابناء جلدتهما ؟ ام استهواء القراء بطرافة المواضيع وغرابتها ؟..

قد يكون الدافع احدُ هذه الاسباب ، او كلّها مجتمعة ، ولكنها إن سوّغت طبع الكتاب ، ما كانت لتسوّل لواضعيه اعادة طبعه على الوجه الذي وصفناه .

اذن لا بدّ ان يكون السرّ كامناً في عظمة حلب ، اذ لا يعقل ان يحمّل ذانك الطبيبان نفسيهما ما حمّلاهما من عبء فادح ، وان يجازفا بوقتهما الثمين في سبيل مدينة نكرة ، خاملة الذكر في الشرق ، مغمورة الاسم في الغرب ، صغيرة في اهلها ، حقيرة في دولتها ...

ولكنّ حلب كانت، على العكس من ذلك، كبيرةً في الشرق، كبيرة في الغرب، قد انتزعت الزعامة الاقليمية من دمشق بوفرة عدد سكانها، وخطورة موقعها الجغرافي والتجاري، وكثرة الاجانب المقيمين فيها، حتى اصبحت، كما وصفها رسل:

— «عاصمة سوريا، والثالثة (بعد الآستانة والقاهرة) في العظمة والشأن بين مدن السلطنة العثمانية (المترامية الاطراف يومذاك)»[1].

— «واكبر مدينة تجارية في جميع بلاد السلطان»[2]، كما وصفها السائح الفرنسي (دورازل = De Razel) الذي زارها في منتصف القرن الثامن عشر.

— ومدينة حلب الشهيرة[3]، كما سماها الرحالة البريطاني (موريسون = Moryson) الذي مرّ بها سنة ١٦١٧.

— والتي بلغ صيتها مسامع (شكسبير = Shakesbeare) كبير

---

(١) Aleppo, the present metropolis of Syria, is deemed, in importance the third city in the Ottoman dominions.
المجلد الاول، الباب الاول، الفصل الاول الصفحة ١
(Russell, Natural History of Aleppo)

(٢) La ville la plus commerçante du Sultan.

(٣) The famous city of Aleppo.

شعراء الانكليز ، فذكرها في مسرحيته الشهيرة (ما كبث) [1]

— والتي خصها الشفاليه دارفيو — وقد كان قنصلاً لفرنسا فيها من سنة ١٦٧٩ الى سنة ١٦٨٥ — بمجلد كامل من مجلداته الستة التي جمع فيها مذكراته عن الشرق الاسلامي [2] .

وهي المدينة التي ملأت اخبارها جميع مؤلفات السياح الذين هبطوا ارض هذا الشرق القريب ، بين انكليزي وفرنسي وايطالي ونمساوي منذ مستهلّ المائة الخامسة عشرة ميلادية حتى افتتاح ترعة السويس، سنة ١٨٦٩، يوم هدم (دُلسّبس = Ferdinand de Lessebs) بمعوله الذي شقّ به القناة ، مستقبل هذه المدينة الزاهرة ، فلم تقم لها بعد تلك الضربة القاضية قائمة الى اليوم .

« المعرّب »

وبعد ، فاما كنا قد بدأنا بنشر مقالاتنا في مجلة الضاد سنة ١٩٤٦ ، بُعيد جلاء الفرنسيين عن سوريا واعلان استقلالها، فلا عجب ان يكون اول ما انتقينا من (كتاب رسل) للتعريب « حديث

---

(١) « Her husband's to Aleppo gone » (Macbeth, Act I Scene 3)

(٢) « Mémoirs du Chevalier d'Arvieux » (Paris, 1735)

الافرنج » ، لما كان لهذا الموضوع من مساس بالابحاث التي كانت تتداولها الاقلام في تلك الايام .

فضلاً عن اننا لم نجد بين المؤرخين العرب ، الذين تيسَّر لنا الاطلاع على مؤلفاتهم ، من عُني بهذا الموضوع وعالجه بشيء من التوسُّع والتفصيل .

الافرنج في حلب

في القرن الثامن عشر

مواضيع البحث

الافرنج المقيمون في حلب — اللغة الشائعة بينهم — لباسهم — الوكالة التجارية الانكليزية — الوكالة التجارية الفرنسية — الاديار — الهولانديون — البنادقة والتوسكانيون — مساكن الافرنج — طعامهم وشرابهم — حياتهم الاجتماعية — تآلفهم وتآخيهم — الانكليز وما اختاروه من انواع الرياضة ووسائل اللهو والنزهة — المعاهدات مع الباب العالي المعروفة بالامتيازات الاجنبية — زيارات القناصل الرسمية لرجال الحكم والسلطان — الافرنج والسوقة — الافرنج وقطّاع الطرق — الافرنج والولاة في الاحوال الشاذة — الافرنج والامراض السارية.

الافرنج[1] المقيمون في حلب هم خليط من انكليز، وفرنساويين، وبنادقة، وهولانديين، وتوسكانيين[2].

---

(١) افرنج (Ifrange) هي اللفظة التي اثبتها المؤلف في ذيل الصفحة التي جاء فيها هذا الكلام كاسم عام يطلقه الأهلون على جميع الاوروبيين دون تمييز، وقال انهم يسمّون اوربا بلاد الافرنج، فاذا ارادوا التخصيص قالوا: بلاد الانكليز، بلاد الفرنساوي الخ.

(٢) كانت (توسكانا Tuscany)، حتى سنة ١٨٦٠، دوقية في ايطاليا الوسطى عاصمتها فلورنسا. المعرّب

واللغة الشائعة بينهم جميعاً هي الايطالية، وهي التي يتكلم بها ايضاً ابناء البلاد ممن هم في خدمة اولئك الافرنج من كتاب وباعة وامناء مخازن وسواهم[1].

اما الفرنسيون فحديثهم في الغالب بلغة بروفنسا[2]، سواء أكان فيما بينهم، ام مع متولي اعمالهم، ولكنهم، في مجتمع مختلط، يتكلمون اما بالفرنسية الفصحى، أو بالايطالية.

واما اللغة العربية، (لغة البلاد) فقلما تجد اوربياً، حتى بين من يطيلون الاقامة في هذه الديار، يعرف منها اكثر ما يكفيه للتحدث بها حديثاً بسيطاً. ويندر ان تجد بينهم من يهتم بتعلمها قراءة وكتابةً.

---

(١) وهذا ما يفسّر لنا كثرة الألفاظ الخاصة بالتجارة التي لا نزال نستعملها الى هذا اليوم كالكبياله، والبوليجه، والجيرو، والبروتستو، والكمبيو، والكوبيا، والدوبيا الخ.

(٢) بروفنسا «Provence» مقاطعة في جنوبي شرقي فرنسا على المتوسط، وسبب تكلم الفرنسيين بلهجتها هو ان معظمهم من اهالي مرسيليا، على ما سيأتي بيانه. (المعرّب)

لباسهم

اما لباسهم فعلى الطراز الغربيّ ، وهو لباس القناصل كافةً ، ولباس الكثير من رعاياهم . على ان هناك فريقاً كبيراً ايضاً من اولئك الرعايا يتزيّا بالزي الشرقي . ومعظم هؤلاء المستشرقين هم من الفرنسيين والايطاليين . ولكنهم جميعاً يحتفظون بالقبّعة والضفار (Wig.=Perruque) عندما يخرجون الى الشارع ، ويعتمرون بالعمامة اذا ما غادروا المدينة في سفر او تجوال . وكان جميع الافرنج حتى سنة ١٧٥١ ، او معظمهم على الاقل ، يرتدون اللباس الشرقي ، محتفظين بالقبّعة فقط كعلامة فارقة تميزهم من السكان الوطنيين ، ولكن منذ تلك السنة أخذ الانكليز يتدرّجون على التزيي بالزيّ الاوربي ، حتى إذا كانت سنة ١٧٧٠ كان هذا الزي قد عمّ جميع التجار الانكليز ، وتبعهم في ذلك بعض التجار الفرنسيين .

الوكالة التجارية الانكليزية [1]

تتألف الوكالة التجارية الانكليزية (The English Factory) من قنصل ، وعشرة تجار ، ومن قسيس ، ووكيل قنصل

(١) كان مقرّها في القسم العالي من خان الجمرك (وهو الذي يسميه « رسل » بالخان الكبير) . المعرّب

(كنشليار = Chancellor) وطبيب ، وحاجب يلقّب بالجاوش (وهو المعروف اليوم بالقوّاس ، او لعله رئيس القواسين) ، يمشي امام القنصل وينقل رسائله .

وكان عدد البيوت الانكليزية في حلب سنة ١٧٥٣ ثمانية ، ما عدا بيت القنصل . ثم اخذ ذلك العدد يتضاءل حتى اصبح سنة ١٧٧٢ اربعة فقط .

وقد ذكر الرحالة الايطالي بدرو تايكسيرا (Pedro Teixera) الذي زار حلب سنة ١٦٠٥ ، ان البيوت التجارية الانكليزية فيها كانت ثلاثة ، وفيها بيت القنصل ، اذ كان يومئذٍ تاجراً .

ويلحق بالقنصلية الانكليزية ترجمانان من ابناء البلاد ، كلاهما من طائفة الروم ، وكلاهما يعرف الايطالية معرفة لا تتجاوز نطاق الحديث . اما اللغات التي يستطيعان القراءة والكتابة بها فقد تنحصر في التركية . ولهذين الترجمانين راتب يقبضانه من شركة الشرق (The Levant Company .)

وهناك ، عدا القواس الرسمي « الجاوش » قواسان انكشاريان يلازمان دار القنصلية ، ولهما راتب دائم كذلك . اما وظيفتهما فهي ان يمشيا امام القنصل وفي يد كل منهما عكاز طويل يقرعان به الارض

تنبيهاً للمارة كي يفسحوا الطريق للقنصل . وليس لهـذين القواسين لباس خاص في الاحوال العادية ، اما في الحفلات العامة فيلبسان قلنسوة فاخرة من اللباد خاصة بتلك الحفلات ، وقد يضاف اليهما اذ ذاك انكشاريون آخرون عند الحاجة [1] .

---

(١) هنا يصف المؤلف موكب القنصل في طريقه الى حفلات الاستقبال او ما يماثلها من الزيارات الرسمية (وهو ما أرجأنا نقله الى ان نصل في الحديث الى تلك الزيارات .)

على ان ما يسترعي النظر في هذا الوصف هو ذكر التراجمة الفخريين بين افراد الحاشية ، دون ما اشارة سابقة اليهم ، والى عددهم خاصة ، في حين ان الامر مما يستحق الذكر ، اذا صحّ ما قاله المرحوم الشيخ كامل الغزي في تاريخه من ان عدد التراجمة الفخريين لمختلف القنصليات في حلب قد بلغ في سنة ١٢٠٨ هـ . (اي حوالي السنة التي صدر فيها كتاب طبيبنا الانكليزي) الفاً وخمسمائة ! وان الباب العالي اهتمّ بالأمر فبعث برجل اسمه كسبي افندي ليحقق فيه . وان التحقيق أسفر عن ان معظم اولئك التراجمة ، الا ستة فقط ، كانوا كذبة ، قد انتحلوا الترجمة خدعة واحتيالاً ، فلبسوا قلانس السمّور (وهي العلامة المميزة لهم) وامتنعوا عن دفع الضرائب والرسوم المترتبة عليهم بوصفهم تجاراً (وكانت الحكومة تعفي التجّار المحميين من كل الرسوم والضرائب) . وقد أرسل التراجمة الكاذبون الى استنبول لينالوا الجزاء الذي استحقوه .

(نهر الذهب في تاريخ حلب ، الجزء الثالث ، الصفحة ٣١١)

الناقل

الوكالة التجارية الفرنسية اكثر افراداً من الوكالة الانكليزية، لأن لكل تاجر منها كاتب من أمّته، او موظف يحمل هذا الاسم، ولهذا الكاتب الحق في ان يصبح يوماً شريكاً في اشغال المحل الذي هو فيه، ويأتي اولئك الكتاب عادة من مرسيليا وهم في مقتبل العمر، كي يتاح لهم الوقت الكافي للتمرّن على الاعمال التجارية هنا. على انهم متى اصبحوا تجاراً أضحت اقامتهم في هذا الشرق محدودة بعدد معيّن من السنين، فاذا انتهى الاجل المضروب وجب عليهم أن يعودوا الى مسقط رأسهم. لذلك تجد الكثيرين منهم، وقد أصبحوا شركاء في البيت التجاري الذي هم فيه، يحتفظون بلقبهم السابق « لقب الكاتب » كيما يتسنى لهم ان يطيلوا مدة اقامتهم في ربوع الشرق بقدر ما يحلو لهم.

كان عدد البيوت التجارية الفرنسية في حلب سنة ١٧٥٣ تسعة فأصبح في سنة ١٧٧٢ ستة او سبعة [١].

وفي رواية للرحالة تايكسيرا المتقدم ذكره ان عدد الأسر

(١) كان مقرّ الوكالة التجارية الفرنسية في خان الجمال، ومدخلها الرئيسي من الشارع المقابل لخان القصبية.

الفرنسية التي كانت في حلب سنة ١٦٠٥ كان خمسة ، ولكنه يقول ان عدد من كان ينزل فيها حيناً ثم يبرحها من تلك الاسر كان يفوق كثيراً عدد من كان يتردد اليها من البنادقة[١] .

وذكر ايضاً ان القنصل الفرنسي كان يتمتع ،من جانب السلطان، بامتياز خاص بين جميع القناصل الذين في حلب ، وهو ان يحمي كل اوربي مسيحي تابع لدولة غير مسموح لها بتعاطي التجارة في السلطنة العثمانية (انتهى قول تايكسيرا) .

وللقنصل الفرنسي وكيله (كنشلياره) وقواسه الخاص ، وانكشاريته ، وموكبه الرسمي ، كالقنصل الانكليزي ، ولكنْ له حق التقدم في الحفلات الرسمية على سائر القناصل، لأن الجالية الفرنسية هي اولى الجاليات الاوربية التي نزلت حلب .

وهناك الاطباء الفرنسيون ، وعددهم يراوح بين الاثنين والثلاثة ، وكلُّهم جرّاح يزاول التطبيب ، وواحد منهم فقط يتولى تطبيب الجالية ، ولكن حماية القنصل تشمل الجميع .

---

(١) كان للبنادقة في حلب يوم نزلها تايكسيرا ، اربع عشرة اسرة ، عدا اسرة القنصل ، كما ذكر في مكان آخر من الكتاب .

(المعرّب)

اما التراجمة فهم اما شرقيون اتخذوا الرعوية الفرنسية ، او فرنسيون اصليون ، وكلهم يتلقون دروسهم ، اولاً في باريس ثم في اسطنبول ، ومنها ينقلون الى مختلف موانىء الشرق ، حيث يتدرّجون الى مراتب الترجمة ابتداءً بالمرتبة الثالثة حتى ينتهوا الى المرتبة الاولى.

وللدولة الفرنسية ، فضلاً عن جماعة التجار ، طائفة اخرى من الرعايا ، وهم سُلالة آباء وضيعي المقام تمكّنوا من التسلل الى هذا الشرق ، فاقترنوا بنسائه المسيحيات ، فكان من تزاوجهم نسل مختلط ، نصفه فرنسي ونصفه شرقي ، سمّوه في الايطالية (متسا راتسا = Mezza Razza) [1] ، على أن ما قام به هؤلاء الاخلاط من الاعمال الشائنة والمخاصمات مع السكان الوطنيين ، واضطرار القنصل ان يحميهم ويدافع عنهم ، حمل ملك فرنسا [2] على ان يصدر ، منذ عهد قريب ، مرسوماً يأمر فيه كل فرنسي تزوّج في بلاد الشرق ان يعود الى مسقط رأسه ، ويخوّل فيه قناصله في هذه البلاد ان يعيدوا فوراً الى الوطن كل فرنسيّ ، مهما كان مقامه ، يقدم ، بعد نشر المرسوم ، على الزواج في الشرق ، دون ان يكون قد نال في ذلك اجازة خاصة من لدن السفير الفرنسي لدى الباب العالي .

---

(١) من (Mezza) اي نصف و (Razza) اي نسل او سُلالة .

(٢) الملك لويس الخامس عشر .

وبفضل هذه التدابير قلَّ عدد طالبي الحماية ، ومع ذلك فلا يزال في حلب بعض تلك الاسر المختلطة ، وبينها من يتزاور والاوربيين المقيمين فيها ، وفي نساء تلك الاسر من تحلو معاشرتهنَّ ومحادثتهنَّ .

الأديار

وممن يستظل بحماية القنصل الفرنسي دير الأرض المقدَّسة « ترَّاسانطا = Terra Santa » . ودير الآباء الكبوشيين والآباء اليسوعيين . أما دير « الترَّاسنطا » ففيه حوالي اربعة عشر راهباً فرنسيسكانياً . وكنيستهم اكبر كنائس الرسالات في حلب واليها يتردد معظم الافرنج الكاثوليكيين ، وكثير من سكان حيّ الجديدة الكاثوليك الوطنيين ، رجالاً ونساءً [1] .

وفي كل من ديري الكبوشيين واليسوعيين ثلاثة رهبان ، ولكل منهما كنيسة صغيرة : « كابلا = Chapelle » داخل الدير [2] .

---

(١) الدير والكنيسة كانا الى عهد غير بعيد في حي الشيباني ، وقد نقلا قبيل الحرب العالمية الثانية الى الكنيسة والدير الجديدين في حي العزيزية . (المعرّب)

(٢) كان دير اليسوعيين في خان البنادقة . ودير الكبوشيين في خان القصبية .

وفي الخان الكبير [1] دير رابع فيه راهبان او ثلاثة رهبان كرمليون، غير ان هؤلاء الرهبان الكرمليين يرجعون في امورهم الى القنصل الامبراطوري، اي التوسكاني، لا الى القنصل الفرنسي.

ومن حديث الاديرة يتطرق المؤلف الى الخلاف القائم بين اليسوعيين واصحاب الاديرة الاخرى حول الكنيسة اللاتينية الاولى التي أنشئت في حلب، فيقول ان اليسوعيين يدّعون انهم اول من نزل حلب وانشأ ديراً فيها، وكان ذلك سنة ١٦٢٥، وانهم يستندون في دعواهم هذه الى المذكرات التي وضعها الاب (نقّي = Nacchi) عن الرسالات. وعلى الرغم من ان الدكتور رسل يسمّي واضع تلك المذكرات بالأب العالم، تراه يسفّه آراءه وينكر عليه صحة ارقامه التاريخية.

وبعد هذا الاستطراد يعود الى اكمال حديثه عن الجاليات الاجنبية فيقول:

الهولانديون

اما الهولانديون فليس منهم في حلب اليوم غير القنصل. وقد كان حتى سنة ١٧٧٢ يتعاطى التجارة ويعيش من وردائها. ولكنه، منذ

---

(١) خان الجمرك.

تلك السنة ، عُيّن له راتب دائم ، ومُنع من المتاجرة اسوةً بقنصلي انكلترا وفرنسا اللذين يحذّر عليهما المتاجرة ، مباشرة كانت او بالواسطة .

البنادقة والتوسكانيون

اما البنادقة فهم اول من نزل حلب من الافرنج وزاول التجارة فيها [1] ، وقد كان لهم فيها سنة ١٦٠٥ ، على قول الرحالة (تايكسيرا = Teixeira) المتقدم ذكره، اربع عشرة اسرة ، ما خلا اسرة القنصل. وكانت ارقام تجارتهم السنوية تراوح بين المليون ونصف المليون ذهباً ، كانوا يستعينون على نقلها بخمسة او ستة مراكب في السنة [2]

---

(١) ولا يزال خانهم (خان البنادقة) ينطق باسمهم الى هذا اليوم .

(٢) جاء في احدى حواشي الكتاب ما ترجمته : « يقول المستر (اندرسون = Anderson) ، في « تاريخ التجارة » الذي أصدره في لندن سنة ١٧٦٤ ، أن اول معاهدة تجارية عقدت مع الباب العالي كانت بين فرنسيس الأول ملك فرنسا والسلطان سليمان القانوني ، وذلك في سنة ١٥٣٥ « وهو المشهور » . ثم تبعتها معاهدة مماثلة عقدت مع البنادقة في سنة ١٥٨٠ . ولكن الحقيقة هي انه كان للبنادقة مراكز للتجارة في حلب قبل سنة ١٥٨٠ بل لعلّهم نزلوا حلب قبل الفرنسيين ، بدليل ان « بيلون = Belon » الفرنسي ، الذي زار الشهباء حوالي سنة ١٥٤٨ لم يذكر ان لمواطنيه الفرنسيين مؤسسة تجارية هنا ، مع انه نوّه باسم القنصل البندقي ، وذكر أنه حلّ ضيفاً في بيت تاجر من البنادقة .

اما اليوم (سنة ١٧٥٤) فليس لهم ولا للتوسكانيين قنصل خاص، بل هم يستظلون حيناً بالحماية الفرنسية وحيناً بالحماية الانكليزية، بموجب تفويض خطي من كل من سفيري هاتين الدولتين المقيمين لدى الباب العالي. وجميع رعايا البندقية، إلاّ تاجرين اثنين، يهود توسكانيون او بنادقة، ولهؤلاء اليهود مكاتب للتجارة، ومخازن للبضاعة، في الخانات، ولكنهم لا يسكنون في تلك الخانات، على الغالب، بل يقيمون وعيالهم في حيّ بحسيتا، في دور واسعة انيقة، وهم في طريقة عيشهم اقرب الى السكان الوطنيين منهم الى سائر الافرنج.

مساكن الافرنج

يسكن معظم الافرنج الخانات، وليس في سكناهم ما يساعد على توفير اسباب الراحة والرفاهية لهم. فالطبقة السفلى من الخان قد جعلوها مستودعاً لبضاعتهم ومقراً لتجارتهم. والطبقة العليا حولوها مخادع لسكناهم، وجعلوا من الرواق الطويل الموصل الى تلك المخادع ميداناً لرياضتهم نهاراً، كما جعلوا السطح ميداناً لرياضتهم مساءً. ومنذ شهر حزيران حتى سقوط اولى امطار الخريف ينام معظمهم على هذا السطح، فوق اسرّة جعلوها ستائر او كلل (جمع كلّة = ناموسية)

خان الوزير وهو يمثل أحد الخانات التي كان يسكنها الافرنج

خلافاً لأبناء البلاد الذين ينامون فوق فرش مكشوفة.

وبيوت الانكليز اليوم احسن رياشاً مما كانت عليه فيما مضى، يوم كانت مستلزمات التجارة تضطرهم الى التغيُّب عن بيوتهم معظم شهور السنة، وتقتضيهم العناية بخيلهم وخيامهم وعدد سفرهم اكثر من عنايتهم بتزيين دورهم.

وبيوت الافرنج هذه، على ما فيها من بعض الطراوة في فصل الحرّ، بسبب كثافة جدرانها، بعيدة عن ان تضاهي دور الوطنيين الواسعة من هذه الوجهة، فانها فضلاً عن ضيق مساحتها، لم تراعَ في بنائها حاجات الاقليم كما روعيت في تلك: فلا برك، ولا قاعات، ولا ايوانات، ولا ساحات فسيحة مكشوفة، ولا ماشاكل من ملطّفات الحرارة ومطرّيات الهواء.

طعامهم

وموائد الافرنج حافلة بكل اصناف الطعام، إلاّ السمك البحري، فانه لا يظهر عليها إلاّ في الشتاء، لتعذّر الحصول عليه طرياً في غير هذا الفصل. ولديهم طهاة قد تعلّموا ان يعدّوا لهم المآكل على الطريقة الفرنسية او الطريقة الانكليزية. وقد يقدمون

لهم بين آونة واخرى طبقاً وطنياً على سبيل التفنن والتنويع . وجميع هؤلاء الطهاة من الارمن . ومنهم ايضاً الخدم والاجراء الذين يعملون في بيوت الافرنج .

والدعوات الى الولائم الرسمية تكون غالباً للعشاء دون الغداء، ولا سيما في فصل الصيف . وقلما تختلف اصناف الطعام التي يتناولها الاوربيون مساءً عن التي يتناولونها ظهراً . ولذا يُعتبر ما يأكلونه من اللحوم ليلاً أكثر مما يأكله عادة اعيان الانكليز في بلادهم في مثل ذلك الوقت .

أما شرابهم المعتاد فصنفان من الخمرة : خمرة صهباء (بيضاء) مزّة المذاق (Dry) من صنع البلاد ، وخمرة كميت (حمراء)، سلسة (Light) من بروفنسا (جنوب فرنسا) . ويقدّم الفرنسيون العنبرية الحلوة (Liqueurs) عند أكل النُقل (Dessert) .

اما الانكليز فقد اعتادوا ان يحتسوا في الصيف ، قبل الغداء والعشاء ، جرعة من البَنج (Punch) المخفف جداً [1] ، وهو شراب

---

(١) البَنج (بالباء المثلثة المفتوحة) شراب هندي ، على ما يظهر ، بدليل ان اللفظة في لغة القوم هناك تعني (خمسة) ، وان « البَنج » على ما تعرّفه بعض المعاجم الانكليزية ، يصنع من خمسة ، وهي : الكحول ، والماء ، وعصير الليمون ، والسكّر ، والافاويه .

منعش ، مبرّد ، استطابه معظم الاوربيين الباقين فقلدوا الانكليز في شربه . وقد جاراهم في ذلك كثير من الوطنيين المسيحيين ، بل بعض المسلمين ايضاً . وقد يشربونه مبرّداً بالثلج احياناً ، مع انهم قلما يستعملون الثلج في غير هذه الحالة ، على الرغم من وفرته في الاسواق. ذلك لانهم يجدون في برودة الخمرة خارجة من القبو ، ومن الماء ممتوحاً (مغروفاً) من الصهريج ، ما يغني عن الثلج، اما تناول المثلجات (بوظة = Ice - cream) فليس من العادات الشائعة عندهم .

ينهض الفرنسيون عن المائدة حالما ينتهون من أكل النُقل ، فتقدَّم لهم غلايين التبغ [1] . اما الانكليز فيطول جلوسهم في غرفة الطعام اكثر من الفرنسيين ، اذ تقدم لهم فيها الخمرة بعد ان يرفع

اما الحلبيون فلم يكونوا يعرفون « البنج » الاّ اذا ذكروا معه (الصناديق) : « بونج وصناديق » ، اي مبنج وخبز اسبانيا ، و « البونج » الحلبي هو عبارة عن كأس من الليموناده صُبَّ عليها قدر ملعقة من الروم (Rhum) ، و نثر فوقها لبّ الفستق الحلبي المقشّر ، ومسحوق بعض الافاويه كجوز الطيب او القرنفل . (المعرّب)

(١) لم تكن لفائف التبغ قد عرفت بعد . وكانت الغلايين يومئذٍ نوعين ، نوعاً قصيراً بسيطاً كالذي نعرفه اليوم ، ونوعاً طويلاً مزخرفاً يراوح طوله بين ثلاث وست اقدام ، يمتد من فم المدخّن حتى يبلغ الارض ، فيسند الى منفضة كبيرة حفاظاً على نظافة الطنافس ووقاية لها من الحريق .

الغطاء عن المائدة ، وتقدّم كذلك الغلايين والقليانات [1] لمن يهوى منهم التدخين .

وهكذا يستغرق جلوسهم الى المائدة ساعة ونصف الساعة ، وقت الظهر ، ثم ينصرفون الى القيلولة . أما في المساء ، فقد يمتد جلوسهم برهة اطول . غير انهم يحرصون كل الحرص على ان لا يفرطوا في الشرب ، ولا يطيلوا السهر ، مخافة ان يظهر اثر ذلك عليهم في الغد ، فيعيقهم عن مزاولة اشغالهم ، ويخفض بالتالي من مكانتهم عند ابناء البلاد الذين يتعاطون واياهم الاعمال .

حياتهم الاجتماعية

يندر التزاور بين الافرنج والوطنيين المسلمين ، بل يندر أن

---

(١) القليانات جمع قليان ، وهو ، على ما وصفه المؤلف في مكان آخر من كتابه ، لا يخرج في شيء عما نسميه اليوم بالناركيلة . وقد كان استعماله يومئذٍ مقصوراً على كبار القوم ، ولا سيما جماعة التجار الذين زاروا بلاد العجم فاقتبسوا هذه العادة من اهلها ، وحملوا جهازها معهم الى بلادهم .
اما الناركيلة فكانوا يطلقونها على جهاز أبسط واكثر شيوعاً ، يحمل غالباً في اليد ، اذ هو عبارة عن جوزة هندية ، او قرعة شتوية ، يصبّ فيها الماء ، وقصبة جوفاء قصيرة يمتصّ بواسطتها الدخان ، وقع من الفخّار في رأس الجهاز يحمل التبغ او التنباك .

(المعرّب)

يتعارفوا عن غير طريق التجارة ، وهم انما يعقدون صفقاتهم على الغالب بواسطة ترجمان ، حتى ولو كان الاوربي العاقد ممن يتكلمون لغة البلاد او يفهمونها .

اما مجتمعاتهم النسائية فمحصورة في نطاق ضيق جداً، لأن النساء المسيحيات الوطنيات لا يعرفن غير لغتهنّ العربية . وليس فيهن إلاّ قلائل ، بين الاسر المختلطة « متسا راتسا » ، يتكلمن الفرنسية . اما الانكليز ، فمنهم من لا يزور معارفه الوطنيين المسيحيين الا في رأس السنة . واذا كان اولئك المعارف من سكان حي الجديدة فقد لا يزورهم ابداً ، حتى ولو كان الانكليزي ممن يتكلمون العربية . وليس في الانكليزيين متزوج . اما الفرنسيون فالمتزوّج منهم القنصل ، وواحد فقط من التراجمة .

وبُعد الاسكندرونة عن حلب يمنع الكثير من المسافرين بحراً من التعرّض لمشاق السفر لزيارة الشهباء — ولولا التجار القليلون الذين يمرّون بحلب في طريقهم الى الهند عبر الصحراء ، لتعذّر على الانكليز ان ينعموا بزيارة احد مواطنيهم ، او بزيارة غيرهم من الاوربيين ، طوال اقامتهم في هذه المدينة . وهذه العزلة الاجبارية تجعل عيشة الافرنج هنا شبيهة بعيشة النسّاك والمترهّبين من عدة

وجوه. فساعات العمل والراحة تتوالى وتتناوب بانتظام مطّرد فلما يعترضه حادث مفاجىء غير مألوف. ولقلة الملاهي المنشّطة لقوى الروح والجسم، ترى الرجل الذي لم تحنكه الايام، ولم تعلمه فنّ الاستفادة من اوقات الفراغ، مسوقاً الى ان يزجّي الساعات الطوال في عزلة مملّة وكسل مرهق.

ويشعر الاوربي بُعيد قدومه الى هذه البلاد بفراغ كبير في حياته الاجتماعية من جراء فقدان الملاهي التي ألفها في وطنه. ولكنّ تقادم الزمن وبعد الشقة لا يلبثان ان ينسياه الحياة التي عاشها هناك، والملاهي التي تعشّقها. وينتهي به الامر، بحكم الحاجة، ان يرضى بكل أهلية تعرض له في هذا المحيط الضيق الذي يعيش فيه، ثم يأخذ في ان يروّض نفسه على حبّ هذه الأهلية الجديدة، صارفاً همته الى تحسينها واتقانها، حتى لتصبح، رغم بساطتها وضيق المحيط الذي تدور فيه، أحلى في عينه، واقرب الى قلبه من تلك الملاهي الصاخبة التي تدور في نطاق اوسع، ولكنها كثيراً ما انتهت بمرارة الاسف وخيبة الامل.

تآلف الافرنج وتآخيهم

يعيش الافرنج مع بعضهم في تصافٍ وتحابّ: يتبادلون

الولائم ، ويعقدون حلقات للعب الورق ، ويقيمون حفلات اسبوعية للموسيقى والطرب ، ومراقص مقنَّعة في بعض المرافع [1] .

وما كان التزاحم التجاري ، حتى ولا قطع العلائق السياسية بين دولهم في اوربا ، إذا قامت الحرب بينها ، لتفصم عرى الالفة والتآخي التي تربط بين افرادهم في سوريا . فقد جرى قناصلهم ، ايام السلم ، على ان يذيعوا بواسطة قوّاسيهم، على جميع الافرنج المقيمين هنا، ما يتلقونه من الانباء العامة التي تعني كل فرد من افرادهم : من مثل اقلاع السفن الى اوربا ، او ارسال البُرد الى الآستانة ، او غيرها من موانىء الشرق ، ليتسنَّى لكل جالية ان تستفيد من وسائل النقل التي تستخدمها سائر الجوالي.

اما في زمن الحرب فتنقطع تلك الاذاعات ، وتنقطع معها الزيارات الرسمية بين قناصل الدول المتحاربة . اما علائق الصداقة فلا تؤثر فيها حالة الحرب ، لأنها وليدة حب وتآخ حالت حيالهما يد القدر التي أُلقت بهم في هذه الديار النائية . فتراهم لا يبدّلون شيئاً من

---

(١) جاء في مذكرات المسيو دارفيو ، قنصل فرنسا في حلب ، انه أبطل في سنة ١٦٨١ عادة « المساخر » بحجة انه لم يرَ من اللائق ان يطوف شباب الافرنج الشوارع ليلاً وهم في زيّ النساء .

العادات التي ألفوها، غير انهم، برضىً متبادل، دون ان ينسى كل فريق منهم واجبه نحو وطنه، وفيما هم يحنّون الى اليوم الذي تعود فيه مياه السلم الى مجاريها، يتركون السياسة في احاديثهم جانباً مخافة ان يصدر منهم ما يخلّ بآداب الاجتماع وحقوق الصداقة.

وقد كتب احد المرسلين الى صديق له يصف ما لاقاه بين الافرنج من مجاملات الودّ في الزيارات التي يتبادلونها في الاعياد السنوية، قال: « ... ولا تعجبنّ لهذه المجاملات المتبادلة بين اقوام مختلفي الأوطان، فما الفرنسيون والانكليز والايطاليون والهولانديون النازلون في هذه الديار إلاّ ابناء امة واحدة بالنسبة الى الاقوام الذين يعيشون بين ظهرانيهم. وكذلك هم في نظر اولئك القوم: فجميعهم « افرنج » لا فرق بين هذا الاوربي او ذاك.

على ان كل تآلف بين هؤلاء المغتربين يتوقف بطبيعته على ما في افرادهم من استعداد فطريّ له، ومن ثم كان عرضة للتبدّل والتحوّل بتبدل اولئك الافراد على تعاقب السنين.

ولقد كان معظم الفضل فيما ساد بيننا من الوئام ايام اقامتنا في حلب عائداً للمسيو توماس (M. Thomas)، الذي تولى القنصلية الفرنسية في هذه المدينة زهاء عشرين سنة، بعد ان كان سكرتيراً

للسفارة في الآستانة، ثمّ فنصلاً في آلجه (عاصمة الجزائر) وسلانيك. فلقد تمكن هـذا الرجل، بما فُطر عليه من لطف، ودماثة خلق، وخفّـة روح، وما خصّه الله به من ذكاء وفهم، تعززهما تربية حرّة وثقافة عالية، ان يجمع حوله قلوب جميع الاروبيين على اختلاف اوطانهم، حتى غدت داره محجاً لهم، ومجمعاً لشملهم، ومجلىً لانسهم، يحلّون فيها على الرحب والسعة، بين انس ذلك الرجل المفضال، وحنان قرينته الرؤوف المحسان، ولطف ابنتهما الجذّابة المحاسن، الرشيقة القوام، وهي التي عرفها الكثيرون منا طفلةً، فصبيّة، فكاعباً، والتي استطاعت بمرحها ولطف معشرها ان تنشر بين اولئك المغتربين جوّاً من الغبطة والنشاط فلما عرفوا له مثيلاً فيما غبر من السنين.

وان الناشر[1] يستبيح العذر عن استطراده هذا، فقد أبى عليه عرفان الجميل إلاّ ان يحيي ذكرى هذه الاسرة الكريمة، لما طوّقت به جيده وجيد أخيه، ومن عاصرهما ورافقهما من الاروبيين، من قلائد انسها ولطفها وحسن ضيافتها.

---

(١) بات رسل

ليس بين الافرنج المقيمين هنا من يجاري التجار الانكليز في ميدان الرياضة — ومعظم رياضتهم على متون الخيل — وخيلهم جياد عتاق قد اعتادوا أن يمتطوها معظم ايام الاسبوع ويطوفوا بها حول البلدة .

على انهم ابتداءً من تشرين الثاني حتى نهاية آذار لا يعودون يقنعون بتلك الجولات القصار ، بل يضيفون اليها ، في كل اسبوع ، جولتين طويلتين تمتدان من الصباح حتى الظهر ، ينصرفون فيهما الى الصيد والقنص ، حتى اذا عادوا منهما تناولوا غداءهم بين المروج ، في ظلّ سرادق كبير ينصب لهم على بعد اربعة او خمسة اميال من البلدة ، ويكون طاهيهم قد خرج منذ الصباح الباكر ومعه الحطب وآنية المطبخ والمائدة ، والزاد اللازم لاعداد الطعام . وخرج كذلك الخدام الذين سيتولّون اعداد المخيَّم ، وقد حملوا معهم السرادق ، ومائدة تطوى ، وكراسي وطنافس .

ويأخذ الطاهي في عمله وهو في العراء ، لا يكاد يجد ملجأ يقيه

(١) تصرَّفنا في هذه القطعة بأن قدمنا بعض ما جاء فيها متأخراً ، واخَّرنا ما كان متقدماً .

شر الريح اذا عصفت ، او المطر اذا انهمر . ومع ذلك ، وبالرغم من قلة الوسائل التي بين يديه — مما يحار له لبّ الطاهي الاوروبي — تراه يطبخ ، ويشوي ، بل يخبز ايضاً [1] ، ويعدّ في الوقت اللازم خمسة او ستة اصناف من المآكل ، فضلاً عن الطعام الكافي لاشباع ما يقرب العشرين من الخدم والاجراء .

يُنصب السرادق اما على ضفة النهر ، او في بقعة خضرة بالقرب من مسيل ماء عذب . وعين رجب باشا ، الى جنوب المدينة ، المعروفة عند الاهلين « بالعين المباركة » ، هي البقعة المفضلة عند الانكليز لهذه الغاية [2] .

على ان السرادق لا يلزم مكاناً واحداً ، بل كثيراً ما يتنقل ويتحوّل من بقعة الى اخرى قصد تبديل المشاهد ، ومجاراة لرغبة الصيادين وحاجة الصيد .

---

(١) لعل هناك تنوراً في بعض البساتين المجاورة يستعين به على هذه الغاية .

(٢) يتحصل مما جاء في مكان آخر من الكتاب ، عند الكلام على نهر قويق ، ان ضفة النهر المشار اليها هنا ، والعين المباركة ، كلتاهما واقعة في جنوب البلدة ، فيما وراء بساتين « وجه قبله » او الوجه القبلي .
(المعرّب)

اما صيدهم فرمي الطيور (وهم يصيبون منها الشيء الكثير في أوائل الخريف واواخر الربيع ،، ثم اقتناص الطرائد — من غزلان وارانب خاصة — بالكلاب والبزاة. ولهم في هذا القنص طريقة ظريفة يمكن تلخيصها فيما يلي [1] :

يقف عشرون او ثلاثون فارساً (وفيهم الخدام) صفاً واحداً، في خط مستقيم ، يفصل احدهم عن الآخر سبع او ثماني اقدام، وهو ما يعرف عندهم «بالبرابر» [2].

ويقف عند كل من طرفي الصف خادمان راجلان ، يمسك كل منهما بزمام كلبين سلوقيين . ويتقدم الجميع البازيار (حامل الباز) ، وقد امتطى جواداً، ووقف على بضع خطوات من وسط الصف .

أما مهمة اكتشاف الطرائد فمنوطة بقادة الكلاب ، ولهم في ذلك حذق غريب ، تشحذه المكافآت التي ينالونها كلما احسنوا التنبيه.

---

(١) جاء هذا الوصف في الفصل الأول ، من الباب الرابع ، من المجلد الثاني ، عند الكلام على ذوات الاربع ، فنقلناه الى هنا لأن المؤلف اشار اليه في حديثه عن الصيد ، ولأن فيه ما يوضح الكثير مما قد يستغلق فهمه من الكلام السابق واللاحق .

(٢) «برابر» لفظة تركية من اصل فارسي يراد بها التناسق والتماثل والتلازم .

والشعار المتفق عليه بينهم، عند العثور على الطريدة، هو ان ينادوا بتحرّس وتحفّظ: «ياتو»![1]. فاذا سمعها الصيادون اخذ صفهم يتحرك بتأنٍّ الى الامام. حتى اذا اعتقدوا ان الطريدة اصبحت في متناولهم ارساوا عليها كلباً او كلبين من الكلاب القريبة منها، وانطلق في اثر الكلبين حامل البازي مُغيراً ومفلتاً بازه، وتبعهم من احبّ من جماعة الصيادين.

اما سائرهم فيظلون في صفهم في انتظار رفاقهم عند عودتهم من الطراد. وعمل البازي في الصيد هو أن يحول دون فرار الطريدة، وذلك بان يصفعها بجناحيه على وجهها صفعات متتاليات، يرتفع اثناءها قليلاً، ليعود الى الصفع بعزم جديد. وهكذا دواليك، حتى يضطرب الحيوان وتختفي امام عينيه معالم الهرب، فتأتي الكلاب وتقبض عليه حيّاً. وتدرّب البُزاة على ان لا تُمسك بفريستها مخافة ان تفتك بها، لأن من البُزاة من تبلغ منها الضراوة والنَهم حدّ ان تنقضّ على الطريدة فتضربها بمخالبها ضربة واحدة تكون

---

(١) ضبط المؤلف هذه اللفظة بالهجاء الانكليزي هكذا: (Yatoo)، وفسرها بـ «نائم او نائمة». والارجح انها مقتضبة من لفظة «ياتيور»: صيغة الحال التركية من مصدر (ياتمق) الذي يعني النوم او الاضطجاع.
(المعرّب)

القاضية عليها .

وينتهي الصيد قُبيل الظهر ، ويُولي الصيادون وجوههم شطر المخيَّم ، حيث يكون طُهاتهم وخدَّامهم في انتظارهم ، وقد انتهوا من اعداد الغداء ، ومن تهيئة السرادق لاستراحة ساداتهم بعد الطعام ، فيدخل هؤلاء السرادق ويتناولون ما على المائدة المنصوبة في وسطه من شهيّ المأكول وسائغ المشروب ، بينما تمرج خيلهم (ترعى المرج) على بعد خطوات من مخيَّمهم ، وقد قُيِّدت منها الرجلان بسلاسل الحديد ، وشدَّت الى اوتاد غُرزت في الارض . وتقف الكلاب والبُزاة حول الخيمة تحرس الصيد ، وقد عُلّق فوق بابها يُعلن الفوز والظفر !

والفصول التي اختارها التجار الانكليز لتنزههم هي ، ولا مراء ، اجمل فصول السنة في حلب . فالسماء في معظم الأيام صافية الاديم ، باهرة الضياء [1] . وامطار الخريف تخلع على الحقول المحروثة ثوباً انيقاً

---

(١) لم يقل المؤلف ما قال جزافاً ، ولكنه بناه على درس دقيق لأحوال الجوّ ، زاوله سحابة عشر سنوات متتاليات (١٧٤١ — ١٧٥١) ، وقد ثبت لديه منه ان معدل ايام المطر في حلب ، في الشهرين اللذين سماها شهريها الممطرين ، وهما تشرين الثاني وكانون الاول ، لم يتجاوز الستة في تشرين والتسعة في كانون ، وان اكثر ما وقع من المطر في كانون الاول من السنوات العشر المذكورة لم يتعدَّ الستة عشر يوماً .

(المعرّب)

من الخضرة النضرة، تطرّزها ازهار المضعف (السوسن العجمي) بصفرتها الزاهية الفاقعة. ولا تخلو الطبيعة هنا حتى في قلب الشتاء من بعض الجمال. ولكن سحرها وفتنتها انما يتجليان في فصل الربيع، ولا سيما عند منتصف آذار، يوم ترتدي الارض حلّتها الخضراء الرائعة البهاء، بين ازهار الحقول، وانوار الاشجار، المتنوعة الصور والالوان. وهناك القطعان ترعى على ضفاف قويق، والقوافل تمرّ احياناً على مرأى من الجالسين في السرادق، وهي تجتاز الروابي والآكام، فتزيد المشهد جمالاً في مختلف فصول السنة.

واذا جاء نيسان خرج الانكليز الى البساتين المعروفة ببساتين «باب الله»[1]، فاستأجروا بعضها وأقاموا فيها حتى اواخر ايار. غير انهم لا ينقطعون عن التردد الى المدينة لتفقد اشغالهم، فيذهبون اليها في الصباح، ويعودون منها إما ظهراً للغداء، او مساءً للمبيت والعشاء.

ولا تخلو الدور التي في هذه الحدائق، على بساطتها، من بعض اسباب الراحة، وما كان ليعسر على الافرنج ان يجعلوها أوفى بغرضهم

---

(١) او «يا بلّى»، نسبة الى القرية التي بهذا الاسم الواقعة في جوار البساتين.

لو لم يكونوا يحسبون انفسهم، وهم في هذه البلاد، سيّاحاً يقيمون في فندق لن يلبثوا ان يفارقوه. فلا يرون من الصواب وسداد الرأي ان ينفقوا دراهمهم في اصلاح وتزويق ما ليس لهم، وما لا يطمعون في ان يصير اليهم. ومع ذلك فان في العيش في تلك الحدائق، على علاّتها، للذّة وبهجة تنسيان ما فيها من عيوب ونواقص، وتجعلان مفارقتها صعبة شاقة، والعودة الى المدينة مكئبة منغّصة. وما كان القوم ليرضوا بالانفصال عن تلك الجنان بتلك السرعة، لولا اشتداد الحرّ في الهاجرة في اواخر ايار، وتكاثر الذباب في الغرف المعرضة للنور، بحيث تصبح الاقامة فيها مزعجة لا تطاق. ثم ان موسم الحصاد يكون قد انتهى. فتنقلب الحقول باتهائه جرداء مقفار، ويصبح الذهاب الى المدينة والعودة منها، على ظهور الخيل، عملاً شاقاً مضنياً.

اما في فصل الصيف، فيختار الانكليز، اذا احبّوا النزهة، أحد البساتين القريبة من خاناتهم [1]، يتناولون فيه غداءهم في ظلال الخيام، على نحو ما يفعلون ايام الخريف والربيع، ويعودون الى بيوتهم في المساء. على ان ما في هذه النُزه الصيفية من المزعجات: كالحرّ اللافح، والذباب المتهافت، ونقص وسائل الراحة للقيلولة التي اعتادوها

---

(١) بساتين «وجه قبله».

بعد الغداء، ليس مما يغريهم بالاستزادة منها.

واما الخريف فبعضهم ينفق الشهر الاول منه في أحد البساتين الدانية التي تقدَّم ذكرها. ولكن معظمهم يفضلون البقاء في بيوتهم حذر التعرُّض لبرودة الهواء في الاصباح والامساء، بسبب الندى الذي يسقط ليلاً في هذا الفصل. فضلاً عن ان موقع البساتين في جوار النهر، وفي منخفض من الارض، ووسط نطاق من النباتات والاشجار، مما يزيد في رطوبة الهواء، ويجعل فصل الخريف في حلب اوخم من فصل الربيع.

وبعد، فقد يتوهم القارىء مما مرَّ به من وصف حياة الانكليز في هذه البلاد، انها حركة دائمة، ورياضة مطَّردة، مع انها، في معظمها، قعود وبطالة. فالتاجر الانكليزي، على الغالب، حلس بيته، لأن أشغاله التجارية قلما تدعوه الى السفر، لذلك تراه يزجّي اكثر اوقاته في مكتبه، غائصاً في الدفاتر والاوراق، او في منزله، متوسداً مقاعد الراحة والكسل. وجلّ رياضته، ما خلا ما تقدَّم ذكره من الصيد والقنص، والانتقال الى الحقول والحدائق في فصول معينة من السنة، إن هي إلاّ بضع خطوات يخطوها فوق سطح داره عند المساء، ونزهة قصيرة، لشمّ الهواء، يقوم بها، على

متن جواده في ضواحي البلدة .

ومع ذلك فليس بين سائر الاروبيين ، في الغالب ، من يجاري الانكليز نشاطاً وحركة ، واذا كان فيهم من يقنون الجياد ويركبونها مثله ، فهم اقل منه انصرافاً الى الرياضة العنيفة كالصيد والقنص ، واقل مثابرة على العيش في الهواء الطلق ، بين الحدائق والمخيمات .

المعاهدات مع الباب العالي ، المعروفة بالامتيازات الاجنبية

يتمتع جميع الافرنج المقيمين في حلب ، على اختلاف اوطانهم وأممهم ، بحماية شاملة متماثلة من لدن الحكومة المحلية . ولهم امتيازات واسعة نالوها بفضل المعاهدات التي عقدتها حكوماتهم مع الباب العالي ، فدور قناصلهم محترمة كالمعابد . بل ان رجال القضاء لا يستطيعون ان يلجوا دار تاجر بسيط من تجارهم ، ان لم يأذن لهم القنصل في ذلك . والمكس (الرسم الجمركي) المفروض على بضائعهم هو أدنى وأعدل ما يفرض من نوعه في بلاد الناس . ثم انهم احرار في ان يرفضوا على المحاكم المحلية حق النظر في الدعاوى المقامة عليهم ، اذا كان مبلغها على جانب من الخطورة ، فينقلوها الى الآستانة لتفصل فيها .

يقيم كل من الباشا والقاضي والمحصّل ، الموظفين الثلاثة الممثلين لجميع فروع الحكم في الولاية [1] ، حفلات استقبال رسمية لكل قنصل بمفرده من قناصل الافرنج ، ولكن لا يردّ الزيارة لاولئك القناصل إلاّ المحصّل .

واذا خرج القنصل في زيارة من تلك الزيارات الرسمية اصطحب معه جميع المستظلين بحمايته من التجار والتراجمة ، وسار موكبه على الوجه التالي :

في المقدمة القواس الرسمي ، ووراءه القواسة الانكشاريون ، فالتراجمة الفخريون ، وقد اصطفوا اثنين اثنين ، فالترجمانان الرسميان ، فالقنصل ، ومن خلفه افراد جاليته .

فاذا بلغ الموكب السراي خفّ رجال الباشا ، وقد لبسوا افخر حللهم وزيّتهم ، الى استقبال القنصل والترحيب به . ووقف الجنود لتحيته ، وقد اصطفوا بحسب رتبهم ونظامهم . وعُرضت في باحة

---

(١) طالع الذيل الثاني « الولايات العثمانية في القرن الثامن عشر » في غير مكانٍ من هذا الكتاب .

القصر ، اكراماً له ، عتاق الخيل ، تلتمع في صدورها واعناقها عدد الفضة والذهب .

فيجتاز الموكب هذه الصفوف حتى يدخل ردهة الاستقبال . وما هي إلا كطرفة عين حتى يدخل في إثره الباشا ، يسانده اثنان من موظفيه ، فيتّجه تواً الى صدر البهو ، ويجلس فى الدست المعدّ له فيه، دون ان يلتفت اثناء مروره الى من حوله . وما ان يجلس الباشا حتى يجلس القنصل ، ولكن ليس على (الديوان) كسائر الضيوف ، بل على كرسيّ فاخر جيء به من بيته (بيت القنصل) [1] .

ويقف اثنان من رؤساء الموظفين بجانب الباشا . ويصطف التجار الانكليز وراء كرسي القنصل . وقد يتعطّف عليهم الباشا احياناً فيدعوهم الى القعود على (الديوان) .

---

(١) جاء في الحاشية ان المستر درومند (Mr. Drummond)، روى في كتاب سياحة له (ولم يذكر رسل تاريخ قدوم هذا الرحالة الى بلادنا) ، ان نزاعاً شجر يوماً بين الباشا والامة الفرنسية بسبب هذا الكرسي. ويظهر ان الحادث قد تكرر سنة ١٧١٤ ، اثناء حفلة استقبال اقيمت لقنصل فرنسا ، على ما رواه السائح بول لوقا (Paul Lucas) . اما الدكتور رسل فقد اكتفى من التعليق على هاتين الروايتين بأنه لم يسمع طوال اقامته في حلب ، بخلاف او اعتراض حول هذا الكرسي القنصلي .

(المعرّب)

وفي اثناء الحديث يقدّم الغلمان الى القنصل المربَّب (المربّى) فالقهوة ، فغليون التبغ ، واخيراً الشراب ، فالعطور ، فالبخور [1] .

وفيما يطوف الغلمان بهذه الاشياء على القنصل ، يقوم غيرهم بتقديم مثلها الى الباشا . وينال التجار وجميع التراجمة نصيبهم من كل ما تقدم ، ما خلا غلايين التبغ .

وقبيل انتهاء الزيارة يخلع الباشا على القنصل فروة من السمور الابيض ، ويهدي كلاً من التجار والتراجمة منديلاً من حرير . وفيما يكون الغلمان منهمكين في إلباس القنصل فروته ، ينصرف غيرهم الى

---

(١) ليس في الحلبيين ، على ما أظن ، من لا يعرف « القمقم والمبخرة » : ذينك الاناءين الفضيين المزخرفين اللذين لا يزالان يزينان ردّه الاستقبال عند بعض اغنيائنا الى هذا اليوم . فهذان الاناءان هما اللذان كان يستعين بهما جدودنا على تعطير ضيوفهم وتبخيرهم .

وطريقتهم في ذلك انه بعد ان يفرغ الزائر من تنـــاول الشراب ، يتقدّم منه غلام وبيده القمقم فينضح راحتيه ببعض قطرات من ماء الورد او ماء زهر البرتقال .

وفي هذه الأثناء يتوجّه غـلام آخر الى ربّ البيت ، فيتناول منه قطعة من عود الندّ يلقيها في المجمرة ، ويتقدّم بهـا من الضيف فيبخّره . والتبخير آخر حلقات الضيافة ، فعلى الزائر بعده ان ينهض فيودع وينصرف .

وللمؤلف ، في المجلد الاول من كتابه ، وصف مسهب طريف لما كانت عليه آداب الضيافة عندنا في عهده ، اجتزأنا منه بهذه النبذة .

(المعرّب)

توزيع المناديل . على ان لهم في هذا التوزيع طريقة يحار في فهمها لبّ الغريب . ذلك انه اذ كان من عادة الشرقيين ان يحملوا مناديلهم في صدورهم لا في جيوبهم ، فان الغلمان ، لجهلهم الفرق بين اللباس الشرقي واللباس الغربي ، يدسون المنديل ، عند توزيعه على الافرنج ، في أي فرجة تعرض لهم بين ازرار الثوب (الردنكوت) ، فيسببون برعونتهم هذه بعض الانزعاج للغريب الذي تقدم له تلك الهدية .

ويعبّر التراجمة الفخريون [1] عن شكرهم للباشا عن هديته لهم بركوعهم أمامه وتقبيلهم كُمّ ردائه . اما الترجمانان الرسميان فيقفان بجانب كرسي القنصل . والغالب ان يتولى الترجمان الاول فقط مهمّة الترجمة . وكلما أجاب الباشا بالقبول على التماس من القنصل، او ردّ على عبارة اطراء منه بعبارة مماثلة ، يركع الترجمان امام الباشا ويقبّل ذيل ردائه . واعلاناً عن رضى الباشا عن هذا الترجمان يخلع عليه عباءة من حرير [2] .

---

(١) راجع بشأن هؤلاء التراجمة الفخريين ما كتبه الغزي في تاريخه ، ونقلناه عنه في الصفحة ٣١ من كتابنا .

(٢) يتحصّل من تعليق المؤلف على هذه العباءة أنها الجبّة الصيفية الطويلة ، الواسعة الاردان ، الشبيهة بالقرطق ، التي كانت تعرف عند جدودنا (بالفَرَجية) . (المعرّب)

اما القاضي فيستقبل القناصل جالساً على سدّةٍ عالية تتألف من عدة وسادات مركوم بعضها فوق بعض ، بحيث يصبح مجلسه ارفع من كرسي القنصل بكثير . وهو مجلىً من مجالي العظمة لا يظهر فيه القاضي إلاّ في هذا الظرف . إذ هو ، في الزيارات العادية ، يجلس الى ضيوفه على (الديوان) نفسه الذي يجلسون عليه [1] . ثم تراه طوال زيارة القنصل له محتفظاً بهيبته ووقاره اكثر مما يفعل الباشا نفسه في مثل هذه الحال . ويقتصر في تقديم القهوة والحلوى وما يتبعهما على القنصل وحده ، دون سائر الضيوف .

اما زيارة المحصّل فأطول الزيارات ، وابعدها عن الكلفة ، واقلها تقيداً بالعادات المرعية . فهنا يجلس الجميع معاً على (الديوان) . ويطاف عليهم كافةً بكل ما يقدّم للقنصل من حلوى ومرطبات وسواها . وعندما يهمّ القنصل بالانصراف يهدي اليه المحصل جواداً . ويهدي جميعَ مرافقيه مناديل من حرير .

ولا يكتفي المحصل من هداياه بالجواد ، بل يبعث الى القنصل

---

(١) ألا يكون في هذا الوضع الشاذّ بعض السرّ في احضار الكرسي القنصلي ؟ (المعرّب)

عقب كل زيارة ، ببقجة من الحرير الاخضر [1] تحتوي على :

آ ـ قطعة من الشال العجمي تكفي لعمل قرطق صيفي وشخشور [2] .

ب ـ قميص وسريويل (كلسون) ومنديل للجيب ، كلها من الحرير .

ج ـ تكّة (للكلسون) مطرزة تطريزاً انيقاً [3] .

ويرد المحصل للقنصل زيارته ، فيستقبله القنصل في داره بمنتهى الحفاوة والاكرام . ويهدي اليه قبيل انصرافه ، فيما يهدي ، عدة عباءات (بالطويات Vests) من الجوخ ، وساعة انكليزية كبيرة

---

(١) هي البقجة المطرز داخلها بخيوط الفضة والذهب ، والمعروفة عندنا « بالبقجة الكيلانية » ، نسبة الى النسيج الذي يبطنها . ولا يزال الكثير من هذه البقج في بيوت الحلبيين وهم يستعملونها الى هذا اليوم .

(٢) الشخشور سروال واسع ، احمر اللون في الغالب ، يقابل (البنطلون) في زينا الحاضر . وهو كثير الشبه بسراويل القواسة عندنا .

(٣) كان اجدادنا يتفننون كثيراً في تطريز هذه التكك . وهي لا تزال من الآثار النفيسة التي تحتفظ بها معظم البيوتات الحلبية العريقة في الثراء ، بجانب (الشورايات) التي تشابهها في التطريز ، من حيث انه يتناول في كليهما الاطراف دون الوسط ، وان قوامه في كليهما خيوط الفضة والذهب والحرير الملوّن .

(المعرّب)

ترسلها ، هديةً ، كل سنة ، شركة الشرق الانكليزية (The Levant Company) .

لا جرم ان هذه الزيارات والاستقبالات ، وما يلازمها من تنظيم مواكب ، وبسط أكفّ في العطايا والهبات ، لعبء ثقيل يلقى على خزائن الافرنج . ولكن لا سبيل الى الشك ايضاً في انها خير معوان على تعريف الاهلين بهم ، وافضل وسيلة للدعاية لهم ، اذ تجلوهم لأبصار السوقة في هالة زاهية من العظمة والجلال .

وما قلناه في تلك الحفلات الرسمية الحكومية نقوله في حفلات الاستقبال التي كانت تقام للقناصل يوم دخولهم اول مرة هذه المدينة ، ولا سيما ما كان يُقام منها لقنصلي انكلترا وفرنسا بنوع خاص . فلقد كانت مشهداً أنيقاً ، يملأ العين روعة وجلالاً ، وتظل ذكراه عالقة بالاذهان على كرّ الايام والاعوام .

وانه لمن دواعي الأسف ان نرى سياسة الاقتصاد التي اعتمدناها في هذه السنوات الاخيرة تستدرجنا الى اهمال تلك العادة الحميدة ، وتسدل حجاباً كثيفاً على ابصارنا فتمنعنا من رؤية العواقب السيئة التي تجرها علينا ! .. ان الاقتصاد ، وان محموداً في كثير من الاحوال ، فانه في مثل هذه الحال لمذموم . فليس من سداد الرأي ان

نبطل عادة أملتها علينا عقلية القوم الذين نعيش بين اظهرهم ، ما دامت تلك العقلية باقيـة فيهم على ما كانت عليه ، أي ما داموا لا يعرفون من العظمة الا وجهها الخارجي . وها نحن اليوم نجني ثمار تلك السياسة الخرقاء ، سياسة الحرص والتقتير ، سياسة اقتبسناها من بعض القنصليات المستحدثة عندنا ، وقد أدت ، بتضافرها وغيرها من الاسباب ، الى ما نلمسه اليوم من الفتور في احترام العامة لنا ، وفي تقلص النفوذ الذي كنا نتمتع به بينهم .

هذا ، وممن يزور القناصل مرة واحدة في السنة زيارة رسميـة « السردار » (وهو قائد فرقة الانكشارية النظامية) .

وقد يزورهم أحياناً غيره من العظماء ورجال الدولة ، ولكن القنصل لا يردّ هذه الزيارات بنفسه ، بل ينيب عنه فيها ترجمانه .

وفي عيدي المسلمين يرسل القنصل الى كل من اعضاء الديوان[1]

---

(١) يتألف الديوان ، او مجلس ادارة البلدة ، على ما ذكره المؤلف في مكان آخر من كتابه ، من اعضاء طبيعيين بحكم وظائفهم ، ومن اعضاء اضافيين.

اما الاعضاء الطبيعيون فهم :

الوالي (او الباشا) ، والمحصّل ، والقاضي ، والمفتي ونقيب الاشراف ، والسردار (او آغا الانكشارية) .

وأما الاعضاء الاضافيون فهم :

كبار العلماء المثقفين (المعروفين بالأفندية) وكبار المزارعين مستغلّي الأراضي (المعروفين بالاغوات) وزعيم التجار (المعروف بالشهبندر) .

بطاقة يضمّنها عبارات التهنئة والتبريك ، ويرفقها بشيء من الحلوى وبقناني الشراب . وقد يخص بعض كبار الموظفين بهدايا غالية الثمن تزلفاً اليهم واكتساباً لودهم .

الافرنج والسوقة

أشرنا فيما سبق الى الأثر العميق الذي تحدثه في نفوس العامة من الشعب تلك الحفاوة العلنية التي يستقبل ولاة الشأن بها الافرنج في زياراتهم الرسمية لهم . ولقد كان من نتيجة ذلك ان اصبح يحترم اولئك الغرباء ويكرمهم من لا تربطه بهم رابطة مصلحة او تجارة ، ولا يطمع بالتالي منهم بجر مغنم او دفع مغرم . بل ان السوقة انفسهم اخذوا يرمقونهم بعين الاعتبار والتهيّب ، ولا يجسرون على انتهاك كرامتهم ، إلاّ اذا استفزهم الافرنج الى ذلك ، إما بسوء سلوكهم ، او باستهانتهم بعادات البلاد وتقاليدها : مثال ذلك ان يتوغل احدهم ، وقد تزيّا بزي بلاده ، في الاحياء النائية من المدينة ، حيث لم تألف العيون رؤية ذلك الشكل الغريب ، فانه لا يسلم من التعرّض لشتائم الرعاع واهاناتهم . وقد لا يتورع الصبية منهم عن رشقه بالحجارة . غير انه لا يعدم في كل مرة دكانياً عاقلاً ، او عابر سبيل مهذباً ينتصر له ويردع المعتدين عن ايذائه . واما اذا شاء الاوروبي المهان ان يرفع

الشكوى بما وقع له الى ولاة الامور، فانهم ينزلون بالمعتدي من صارم القصاص ما يجعله عبرة لمن تحدثه نفسه بالاقتداء به .

ثم ان هناك عادة مضحكة درج عليها القوم في حلب ، وهي من العادات الشائعة في معظم البلاد السورية . تلك انهم كلما التقوا بأوروبي في مكان بعيد عن مناطق الخانات التي يقيم فيها الافرنج ، بادروه بالصراخ بأعلى اصواتهم :

فرنجي كوكو ! فرنجي كوكو !

مرفقين صراخهم بالتصفيق ، ومضيفين ألفاظاً أخرى بذيئة يتمّون بها الدور ، ولا ينقطعون عن الصراخ والتصفيق حتى يغيب الافرنجي عن ابصارهم . ولا بدَّ من القول ان هذه العادة غالبة في النساء والاولاد اكثر منها في الرجال ، ولا سيما من كان من اولئك النسوة والاولاد من طبقة الرعاع . ولسنا نخال إبطالها سهلاً ميسوراً ، لأن الاولاد يتعلمون تلك الالفاظ ، وهم في احجار امهاتهم ، قبل ان يتمكنوا من النطق بجلاء .

الافرنج وقطاع الطرق

الافرنج ، في اسفارهم ، اقل من الوطنيين تعرضاً لاعتداء اللصوص وقطاع الطرق ، رغم قلة الحامية التي ترافقهم عادة . والسبب

الاكبر في ذلك يعود الى الهدايا التي يوزعونها في كل سنة على امير الاعراب النازلين في صحراء حلب ، وعلى رؤساء عشائر الأكراد المقيمين في جوار بيلان . فبفضل هذه العطايا يتولى امير الاعراب حماية الطرق القريبة من المدينة ، ويتولى اغوات الاكراد حماية شعاب بيلان والسبل المؤدية اليها .

على ان هناك سبباً آخر يحمل اللصوص على سلب الوطنيين دون الافرنج . ذلك ان الافرنج انما يسافرون على الغالب ترويحاً للنفس ، في حين ان ابناء البلاد يرحلون في طلب التجارة ، مرافقين القوافل التي تحمل بضائعهم . ومعلوم ان التعرض لسياح يتجولون قصد النزهة واللهو اقل اغراء من التعرض لتجار يحملون الثروات والكنوز . ثم ان سرقة الافرنج لا بد ان تحدث ضجة اعظم من سرقة الوطنيين ، لأن الافرنج لا يغضون على القذى ، بل يسارعون الى طلب التعويض والاقتصاص من المجرمين .

اما الوطنيون فيفضلون غالباً ان يلوذوا بالصمت والصبر ، ولا سيما اذا كانت السرقة هي اول سرقة يتعرضون لها ، لعلمهم انهم ، ان رفعوا ظلامتهم الى ولاة امورهم ، تعرضوا لنفقات قلما تعود عليهم بالفائدة التي يرجونها .

وصفنا فيما تقدّم موقف الافرنج من الولاة العثمانيين في الاحوال العادية المألوفة . غير ان هناك أحوالاً شاذة كان فيها تعسف الباشا واهواؤه تقلق بال القناصل وتنغص صفو عيشهم . مثال ذلك ان يعمد ، في ساعة زرق وطيش ، الى مخالفة شرط من شروط المعاهدات (الامتيازات الاجنبية) ، او الى ابطال حق اكتسبه الافرنج بحكم العرف والعادة ، مما كان محرماً على غير المسلمين [1] .

على ان ما تجب ملاحظته هنا ان معظم تلك الاعتداءات انما كانت تقع على المحميين ، او على التراجمة الفخريين ، اكثر منها على الافرنج الخلّص ، ومع ذلك فمن واجب القنصل ، بحكم وظيفته ، ان يدافع عن تراجمته ومحميه دفاعه عن ابناء جلدته انفسهم . فاذا لم يوفق

---

(١) أشار السيو دارفيو (١٦٧٩ — ١٦٨٩) في مذكراته الى حادث من هذا النوع انكر فيه الباشا على الافرنج حق ركوب الخيل داخل البلدة ، على ما كانوا قد جروا عليه في عهده .

ومعلوم ان حق ركوب الخيل كان منحصراً من قبلُ بالمسلمين فقط ، بحيث ان السائح (راولف) الذي زار حلب سنة ١٥٧٣ اضطر ، على ما ذكر في كتاب سياحته ، ان ينزل عن دابته لدى وصوله الى باب المدينة ، « لأنه لم يكن يسمح لغريب ان يركب دابة داخل المدن التركية » .

(المعرّب)

الى ازالة الشكوى بالطرق الحبية اضطرّ الى رفع الامر الى مرجعه الأعلى في الآستانة . وقد يشترك في الشكوى جميع القناصل اذا ما شمل التعدي كل الاجانب على السواء ، فيرفع القناصل كافةً شكواهم معاً الى سفاراتهم . ومتى بلغ الخطب من الشدة هذا المبلغ اصبح قلق الوالي على مصيره اعظم من قلق القناصل على رعاياهم . وسبب ذلك انه وان لم يكن في وسع السفراء ان يصلوا دائماً الى احقاق حقهم سريعاً مهما بذلوا من جهود وأوتوا من دهاء ، فان ذكرى تلك الشكوى على الباشا تظل عالقة بأذهان رجال المابين ، ولا بدّ ان يأتي يوم ، قريب او بعيد ، عند تقلب السياسة ، يرى فيها ذلك الوالي ان خصومه هناك قد استغلوا تلك الشكوى لمصلحتهم ، فيصح فيه قول القائل :

« على نفسها جنت براقش »

ولذا ترى معظم الولاة يفضلون ان يعيشوا مع القناصل عيشة سلام ووئام ، وتجد القناصل ايضاً يقابلونهم بالمثل ، فلا يتعرضون من احوال القوم الذين يعيشون بين اظهرهم الا لما له مساس مباشر بهم وبرعيتهم .

الافرنج والامراض الوافدة

يندر ان يصاب الافرنج بالامراض الوافدة التي تنتاب المدينة ،

سواء ما كان من تلك الامراض سليم العاقبة على الغالب ، وكان ظهوره في فصول معينة من السنة ، امثال الحصبة ، والجدري ، والزحير (الدوسنطاريا) ، والحميات المختلفة ، أم ما كان منها وبيل العاقبة ، يدهم البلاد على غير ميعاد ، بعد ان يغيب عشرات السنين ، كالطاعون .

اما سلامتهم من الوافدات السنوية فيمكننا ان نعزوها الى ثلاثة اسباب رئيسية وهي :

اولاً — انهم قلما يؤالفون الوطنيين ويصاحبونهم ، فلا يتعرّضون من ثم للعدوى التي عن طريقها تنتقل معظم تلك الامراض عادة .

ثانياً — إن طعامهم صحيّ مغذّ اكثر من طعام الوطنيين ، وانهم لا يتهافتون خاصةً على أكل الثمار الفجّة العسرة الهضم تهافت ابناء البلاد عليها .

ثالثاً — ان جلّهم يقيم في الطبقات العليا من الخانات حيث يهبّ الهواء طلقاً نقياً ، بعكس الوطنيين الذين يعيش سوادهم في باحات ضيّقة عالية الجدران ، في جوّ مشبع بالبخار المتصاعد من مياه البرك ، ومن البلاط المندّى دوماً برشاشها .

وحسبنا برهاناً عن صحة ما ذهبنا اليه ان الآباء المرسلين ، الذين تضطرهم واجبات دينهم ان يُكثروا الاختلاط بالوطنيين ، والافرنج المتزوجين العائشين عيشة كثيرة الشبه بعيشة ابناء البلاد ، قلما يسلمون من الامراض التي تنتاب اولئك السكان .

اما سلامة الافرنج من الطاعون فالفضل الاكبر فيها يعود الى وسائل الحيطة العديدة التي يلجأون اليها ، على ما فصّلناه في الباب السادس الذي افردناه لهذا البحث [1] .

« انتهى فصل الافرنج »

---

(١) وقد عرّبنا بعض اقسامه في ذيل ألحقناه بهذا الفصل .
(المعرّب)

(١)

ذيل اول

في الطاعون والطريقة التي استنّها الافرنج في توقي عدواه

كيف وُضع باب الطاعون

كانت حلب في القرن الثامن عشر، والقرون التي سبقته، عرضةً لهجمات الطاعون، ومسرحاً لفواجعه ومآسيه. وقد نُكبت منه في سنة ١٧٤٢ بجائحة جارفة ظلت تعصف بها ثلاث سنوات متتاليات، ذاقت من بلاياها الامرّين، وهلك من جرّائها خلق كثير، قدره بعضهم بمائة الف او يزيدون.

وكان من الطبيعي ان يتأثر مجرى الحياة العامة بتيّار تلك الأحداث الجسام، وهلاك ذلك العدد المديد من الناس، فيقف دولاب الاعمال، وتتعطّل المصالح والتجارات، وتمزّق شمل الاسر والمجتمعات، ويسود المدينة الهلع والكآبة والوجوم.

وتشاء الاقدار ان تلقي في هذا الخضمّ الزاخر بالأرزاء والاسقام،

(١) لهذه الذيول ارتباط بمواضيع وردت في فصل الافرنج، وكان من حقها ان تدرج في حواشي ذلك الفصل، ولكن طولها حال دون نشرها هناك، فأفسحنا لها المجال هنا. (المعرّب)

المأنج بالاكدار والآلام، طبيباً شاباً، هو الدكتور الكس رسل، واضع الطبعة الاولى من الكتاب الذي ننقل عنه، وان تضعه، بُعيدَ قدومه، وبحكم مهنته، وجهاً لوجه امام افظع داء، واعدى وباء عرفته البشرية منذ اقدم عصورها الى اليوم.

وكانت الصدمة شديدة، والمحنة قاسية ألمة، ولكنّ طبيبنا المقدام تلقاها بصدر رحب، وقلب عامر بالايمان، وراح يغالب الخوف ما وسعته المغالبة، ليلمس بيده جروح تلك المدينة المنكوبة التي أضافته، ويسبر بمبضعه غور آلامها واسقامها، معرضاً للخطر، في سبيل الواجب، حياةً وقفها على خدمة بلاده، وسلامة ابنائها المغتربين، رفقاء جهاده [1].

---

(١) كان الخوف من عدوى الطاعون يلازم الأطباء بنوع خاص فيمنعهم من معالجة المطعونين مباشرة. لذلك كان الدكتور (الكس)، في السنتين الأوليين من انتشار ذلك الوباء في حلب، يكل الى بعض الثقات من أعوانه الوطنيين ان ينوبوا عنه في عيادة المطعونين الذين كان يُدعى الى معالجتهم، وعلى ضوء ما كان يأتيه به اولئك المندوبون من تشخيص لاعراض الداء كان يصف العلاج والدواء. على أن نفسه لم تكن لترتاح دوماً الى هذه الطريقة الملتوية من المعالجة، بل كثيراً ما كان ينغالب الخوف ويعود الموبوئين في منازلهم ويؤاسيهم بنفسه، حتى اذا كان العام الثالث (١٧٤٤)، وكانت قد خفّت وطأة الوباء، بحيث لم يرَ قومه من حاجة عاجلة الى

على ان هذه النكبة التي أُمتحن بها ذلك الطبيب المحسان ، لم تخلُ من فضل نسجله لها بمداد الشكر — ان جاز شكر لمكروه — ذلك أنها شحذت قريحته ، وأرهفت قلمه ، فخطَّ لنا اول حديث من أحاديثه عن حلب ، وهو حديث الطاعون ، وضعه ليكون تذكرة لمواطنيه المغتربين يرجعون اليها عند الحاجة ، ويسترشدون بهداها كلما حلَّ بدار غربتهم ذلك الوباء الوبيل . ثم جعل من هذه التذكرة باباً من ابواب كتابه الستة ، وحجر الزاوية في بناء ذلك المؤلف الضخم ، الذي تعاون واخاه الدكتور (بات) على اتحافنا به ، كما جاء في المقدمة .

أما مواضيع باب الطاعون هذا ، فقد وزعها المؤلف على ستة فصول في الباب السادس والاخير من كتابه (الطبعة الثانية) ، كما هو مفصل في الفهرس العام .

ولسوف نجتزىء من هذه الفصول الستة بزبدة ما تشتمل عليه من الابحاث العامة التي نرى ان لها من قدمها وغرابتها طرافة تحببها

الاعتزال ، وكان هو قد ألف ذلك الوباء ، وفتر خوفه من عدواه لطول ما تعرَّض لها ، خرج من خلوته وراح يعالج المطعونين بنفسه ، دونما تمييز بينهم وبين سائر مرضاه .

(عن يوميات في سير الطاعون في السنوات ١٧٤٢ و ١٧٤٣ و ١٧٤٤ ، عثر عليها الدكتور بات بين مخلفات اخيه الدكتور الكس الخطية) .

الى عامة القراء .

واما الابحاث الطبية الصرف ، وهي التي لا تعني إلاّ فئة ضئيلة من القرّاء ، فلن نتعرّض لها إلاّ لماماً ، لاعتقادنا انها قد فقدت كثيراً من قيمتها العلمية بتقادم العهد بها ، وبما حدث في عالم الطب ، بعد القرن الثامن عشر ، من الانقلاب الخطير ، ولا سيما منذ ان اكتشف العلامة بستور سرّ الجرثومة والمصل واللقاح .

★ ★ ★

وصف الطاعون [1]

يستهلّ الدكتور (رسل) أحد فصول باب الطاعون بهذا الوصف البليغ الرائع ، الذي يذكرنا بمطلع قصيدة الشاعر الفرنسي الكبير (لافونتين) المسماة « الحيوانات المصابة بالطاعون » ، فيقول :

« لا غروَ أن تهلع القلوب ، وترعد الفرائص ، وتضطرب النفوس ، « لمجرد ذكر الطاعون ! فهو الداء الخبيث ، الشديد الفتك ، السريع « العدوى ، يدخل البلدة فينتشر فيها انتشار النار في الهشيم ، حاصداً

---

(١) الطاعون اربعة أنواع ، اشهرها واكثرها حدوثاً الدمليّ ، وعليه مدار الحديث في هذا الذيل .

« للأرواح ، ممزقاً شمل الأسر ، ناشراً الكآبة والجزع في كل مكان[1] ،
« فأينما كنت ، وحيثما حللت ، لا تقع عينك إلاّ على مشاهد الموت
« في افجع صوره واشكاله ، ولا تسمع اذنك إلاّ نوح الثكالى، وعويل
« اليتامى ، ونعيّ المؤذنين ، تتعالى من هنا وهناك في الليل والنهار . »

« وما عساني اقول في الداء نفسه ، فانه من افظع الأدواء التي
« تعرض لبني الانسان ، فمن حرّ مسعر ، الى عطش شديد ، الى دوار
« وقيء ، الى هذيان واعتقال في اللسان ، الى خَوَر لا يوصف في جميع
« الاعضاء ، الى ألم ناخس من الدمامل المنتشرة في العنق والابط
« والاربية (أصل الفخد) — حتى انّ من ينجو من براثن الموت لا
« يسلم من الآم تلازمه الأيام الطوال ، تثيرها الخراجات المتقيحة التي
« يخلّفها في جسمه ذلك الوباء اللعين . »

« أضف الى ما تقدّم ، هجران الاهل والاقارب ، واختفاء
« الاصدقاء ، وفرار الخدام ، وفقدان الحاجات الضرورية ، وتعذّر
« الحصول على المساعدات الطبية ، وكلها أسباب من شأنها ان تزيد
« في عذاب المريض ، وتساعد كثيراً على انتشار الذعر والهلع بين
« الاهلين . »

---

(١) جاء في مذكرات المؤلف ان خمسة عشر شخصاً ماتوا بهذا الوباء في بيت واحد في حيّ العقبة ، في مدة لم تتجاوز الشهرين .

بعد هذا الوصف المفزع المروّع يستطرد الدكتور الكس رسل حديثه عن الطاعون في حلب فيقول .

لقد أجمع رأي الحلبيين على ان الطاعون انما يزورهم عادة مرة في كل عشر سنوات ، وانه لا ينشأ في مدينتهم نفسها ، بل ينتقل اليهم إما عن طريق دمشق جنوباً ، او عن طريق كلّس او عنتاب او مرعش او اورفا شمالاً . ولقد ثبت لديّ ان هذا الوباء يظهر اول ما يظهر في مدينة من مدن الساحل السوري . فاذا كان ظهوره في صيدا او بيروت او طرابلس ، مثلاً ، كان قدومه الى حلب عن طريق دمشق . أما اذا ظهر في الاسكندرونة او بياس فطريقه الى حلب كلس او عنتاب او سواهما من مدن الشمال .

واذا ظهر الطاعون شتاءً كان سيره بطيئاً ضعيفاً . ولكن ما ان يجيء الربيع حتى ينشط من عقاله ، وتتسع دائرة انتشاره ، ويرتفع معدل ضحاياه . ويظل سائراً في طريق الصعود حتى يبلغ ذروة فتكه في حزيران . ومن ثم يأخذ في الانتكاص والتقلّص في تموز ، حتى اذا جاء آب تكفّل القيظ بعلاشاته والقضاء عليه .

هذه ، على ما بدا لي ، دورته العادية في حلب ، بحيث إنه لا يصاب به احد في شهري ايلول وتشرين الاول ، حتى ولو استمر الوباء ثلاث

سنوات متواليات ، كما حدث في سنة ١٧٤٢ [١] .

ويختلف الطاعون شدةً وضعفاً باختلاف السنين ، سواء كان من حيث الوفيات ام من حيث الاصابات .

والاصابة بالطاعون لا تخوّل المصاب مناعة تقيه عودة ذلك الوباء اليه . فقد عرفت اثناء اقامتي في حلب ، أناساً طعنوا مرتين، وغيرهم ثلاث مرات . بل عرفت منهم من طعن في الوافدة الواحدة، ثلاث مرات متواليات .

ومع ذلك فليس فيما شهدت وسمعت ما يثبت ان الطاعون قد أحدث يوماً هنا ما كان يحدثه في اوروبا ، في بعض وافداته ، من الهلع والاضطراب والفوضى . او ان هذه البلاد قد كانت في يوم من تلك الايام السوداء مسرحاً لمثل المشاهد الموبقة المفجعة التي اشتهر بها الغرب في القرون الوسطى [٢] .

---

(١) يقول الناشر الدكتور بات ان خبره لحوادث الطاعون في سنة ١٧٦٠ جاء مكذباً لخبر اخيه . نعم ان الوفيات تقلّ كثيراً في هذين الشهرين ، ولكنها لا تنقطع بتاتاً ، بيد أن الاهلين يفرغون جهدهم في أن يخفوا اخبارها عن الافرنج ليوهموهم ان الوباء قد انقطع فتعود الحياة التجارية الى سابق نشاطها.

(٢) يشير المؤلف هنا الى طرح جثث المطعونين في الطرقات ، حيث كانت تظل ساعات طوالاً ، بل اياماً ، تنتظر من ينقلها الى الضرائح العامة التي كانت تعدّ لها في المقابر ، او في باحات الكنائس والاديار .

(المعرّب)

للافرنج ، في الوقاية من الطاعون ، طريقتان ، يعولون عليهما ، بعد الله ، في دفع غائلة هذا الوباء عنهم ، عند تفشّيه في حلب ، احداهما تقوم بالنزوح عن المدينة ، والثانية بالبقاء فيها في عزلة عن الناس والاشغال ، قابعين في بيوتهم ، قاطعين كل صلة بالخارج يمكن ان تنتقل بواسطتها عدوى الداء اليهم .

واولى هاتين الطريقتين هي التي جرى عليها الانكليز في مستهلّ عهدهم في هذه البلاد ، يوم كانت تجارتهم تسير بدقة وانتظام ! فتجيء بضائعهم وتروح ، مرة في السنة ، في سفن استأجروها لهذه الغاية ، ترسو في ميناء الاسكندرونة ، وتقلع منه ، في فصل يعينونه لها فلا تتعداه ، بحيث كان يتسنى لهم أن يغادروا متاجرهم عند انتشار الطاعون في حلب ، فينتقلوا الى المخيَّم الذي أعدّوه لانفسهم في جبال بيلان ، يقضون فيه اشهر الحر بكاملها دون ان تصاب تجارتهم بأذى . وقد كان لهم يومئذٍ من كثرة العدد ما يجعلهم مرهوبي الجانب ، موفوري الكرامة بين جماعة الاكراد الذين كانوا يساكنونهم في تلك الجبال .

اما اليوم (سنة ١٧٥٢) فقد تبدلت احوال التجارة ، ولم تعد

تجري على نظام مطرد ، وسنن معـلوم ، وصارت البضائع تنقـل في مراكب صغيرة تعمل لحساب اصحابها ، وهي تجيء وتروح على غير ميعاد ، وفي كل فصل من فصول السنة ، فـلم يعد من السهل على اولئك التجار أن يغادروا البلدة في اي وقت شاؤوا . ثم ان عددهم قد تدنى كثيراً عما كان عليه قبلاً ، وعداوة متلصصي الاكراد لهم قد بلغت من الشدة حداً لم تبلغه في اي يوم مضى ، فأصبح انتقالهم الى جبال بيلان ، عند انتشار الوباء ، محفوفاً بالمخـاطر ، محاطـاً بالمهالك ، وبالتالي قريباً من المستحيل..

اما انتقالهم الى احدى القرى المجـاورة لحلب ، عند اشتداد وطأة الوباء ، فليس بالمحمود المغبة ، السليم العاقبة . اذ مهما بالغ الافرنج في التحرّس والتحفّظ فـيما يتعلق باشخاصهم وباجرائهم ، فليس في وسعهم ان ينصّبوا انفسهم رقبـاء ومفتشين على كل فرد من افراد القافلة الكبيرة التي تتولى نقل امتعتهم وخيامهم وسائر مواعينهم . فقد يكون في تلك القافـلة من تسللت اليه العلة على غير فهم منه ، او يكون الوباء ، في سواه ، كامناً في بيته ، منتشراً في عياله ، وقد كتم خبره عن الافرنج طمعـاً بالربح يجنيه من خدمتهم . وبعد ، فقاما يتفشّى الطاعون في حلب ولا تنتقل عدواه الى معظم القرى المجاورة.

بل ربما كان الوباء في القرية نفسها التي نزلها الافرنج ، وقد فتك ببعض سكانها ، ويظلّ القرويون يؤكدون بأغلظ الايمان ان قريتهم سليمة من لوث الداء ، وتلك طريقة اعتادها معظم الاهلين هنا ، فهم يكتمون اخبار الطاعون ما استطاعوا الى الكتمان سبيلاً ، ما دامت هناك فائدة قد يجنونها من وراء ذلك الكتمان .

إذاً ، فالعزلة في البيت هي أسلم الطرق وافضلها في مثل هذه الحالة التي وصفنا . وإن هي نفّذت على الوجه الأمثل ، كانت الميناء الامين ، والملجأ الحصين ، وسط عواصف الطاعون ، وغاراته الفتاكة.

وقد أكد الاختبار فوائد هذه العزلة بما لا يدع مجالاً لشك وارتياب .

ولم تقتصر هذه الفوائد على الافرنج وحدهم ، بل شملت ايضاً كل من احسن تطبيقها من خدامهم واجرائهم ، وهم كُثر ، يربون على سادتهم عدداً ، وجميعهم من متغربيّ الأرمن (كما تقدم القول في « فصل الافرنج ») .

ولقد تحقق ابناء البلاد ايضاً فوائد هذه العزلة فاقتبسها كل مسيحي او يهودي سمحت له أحواله المادية باقتباسها ، بل انك لتجد المسلمين انفسهم (وهم الذين تمنعهم بعض المعتقدات الدينية من الجري

على هذه العادة جهراً)، ولا سيما من خالط منهم الافرنج وآلفهم، تجدهم يختلقون الاعذار للقبوع في دورهم، عند اشتـداد الوباء، او ينتقلون الى احدى الحدائق التي يملكونها خارج البلدة، بحجة تبديل الهواء فيها، ومنهم من يقوم بسفرة تجارية الى البلاد النائية. وكثيراً ما يكون الحج الى مكة المكرمة وسيلةً للتقرب الى الله تعالى ولاتقاء خطر الطاعون معاً.

وهنا نرى من الواجب ان نستدرك ما قلناه عن الافرنج، في الفصل الذي خصصناه بهم، انهم قلما يصابون بالامراض الوافدة التي تنتاب هذه المدينة، فنصرّح ان الطاعون يصيبهم كغيرهم من السكان سواءً بسواء، فقد عرفنا منهم مَن طُعن، عند اشتداد الوباء، بعضهم قبل اعتزالهم، وبعضهم بعده.

ونعود الى العزلة فنقول:

اذا كان سير الداء بطيئاً والاصابات به قليلة (كما تكون عليه الحال عادةً في الشتاء واوائل الربيع) قصر الافرنج عزلتهم على ما يلي:

آ — قطع كل صلة بالسكان الوطنيين، إلاّ فيما تدعو اليه الضرورات التجارية القصوى.

ب — منع خدامهم من الخروج من الدار ما أمكن .

ج — صرف حلاَّقهم الوطني والاستعانة عنه بأحد خدامهم .

د — انتقاء غسَّالة ممن لا يحترفنَ الغسيل في بيوت الوطنيين، وقد ثبت لديهم سلامتها وسلامة محيطها من الالتياث بالوباء ، على ان هذه العزلة (وقد دعوناها الصغرى) لا تحول دون تزاور الافرنج ، والقيام بما ألفوه من التجوال اليومي ، على ظهور الخيل ، في ضواحي المدينة .

ومن عادة السكان الوطنيين ، في هذه الفترة من سير الطاعون، ان يبذلوا غاية ما في وسعهم في أن يحملوا الافرنج على العدول عن فكرة الاعتزال ، إمَّا بالتأكيد لهم ان كل ما نُقل اليهم من الاخبار التي أثارت فيهم الخوف والقلق ، مختلق لا ظلَّ له من الحقيقة . او بايهامهم انَّ تلك الاخبار ، على فرض صحة بعضها ، انما كانت حادثاً عارضاً ، وسحابة صيف لم تلبث ان انقشعت بلطف الله ورحمته ، وان المدينة قد عادت سليمة من كل ما يدعو الى شبهة او جزع .

وتصادف هذه التأكيدات الجريئة هوىً في نفوس الكثيرين من الافرنج ، فيصدقونها على علاتها ، رغم منافضتها للحقيقة ، ورغم

ان الاختبار قد علّمهم ان من الحمق الركون الى امثالها. حتى اذا ما فوجئوا يوماً بأنّ أحد ابناء جلدتهم، او فرداً من افراد حاشيتهم او خدامهم، او وجيهاً من وجهاء البلدة، او كبيراً من كبرائها، قد أصيب بالطاعون، اضطربت منهم النفوس، وهاجت الخواطر، وتملكهم الهلع والفزع، وهرعوا الى دورهم يعتصمون بها ويحتجرون.

اما من كان رائده الفطنة والحذر، فلا يعير التفاتاً الى تلك الروايات الملفقة، والاحاديث المنمقة، لعلمه ان الطاعون الذي ظلّ كامناً في الشتاء كمون النار تحت الرماد، لا بدّ ان يهبّ في الربيع، وينشط حوالي اواخر آذار. لذلك تراه، على تمسكه بأسباب الحيطة المتقدم ذكرها، لا يبرح ساهراً يقظاً، يُعدّ العدّة للعزلة الكبرى، تبتدىء منذ اليوم الذي يلمح فيه ارتفاعاً في معدل الاصابات، وتنتهي بانتهاء تموز. وهكذا لا يؤخذ على حين غرّة، وينجو من البلبلة والاضطراب اللذين لا بدّ ان يحدثهما الفزع في من يفاجأ، وهو مطمئن البال، بنذير الخطر الداهم. ذلك لأن من عادة الطاعون هنا انه، اذا جرى في عنانه، سار بسرعة الريح، بحيث ان الفرق بين من يتعجّل الاعتزال، ومن يحاول ارجاءه الى آخر ساعة، قلما يتجاوز

بضعة ايام [1].

وإذ كان من الصعب على الفرد ان يظل سجانة اربعة اشهر حلس بيته، لا أنيس له فيه ولا جليس، اصطلح الافرنج على أن تنضم كل جالية منهم الى بعضها، في فرق صغيرة، تقيم كل فرقة في دار من دورهم، ينتقونها أما لسعتها، او لمنافع اخرى فيها، مما يتفق وحاجات العزلة. وهم يفضلون نوع خاص الدور التي لا يكون لها اتصال مباشر، عن طريق السطح، بالمنازل المجاورة. لأنهم، ولو

---

(١) تتراوح مدة العزلة عادة بين شهر واربعة اشهر، تبعاً لسير الوافدة شدةً وضعفاً. ففي سنة ١٧١٩، مثلاً، كان الطاعون شديد الفتك، سريع الانتشار، فاضطر الافرنج الى الاعتزال منذ اواسط آذار، وظلوا في معزلهم حتى أواسط تموز. وكانت وافدة سنة ١٧٢٩ خفيفة الوطء، قليلة الاصابات، فما اعتزل الافرنج إلا شهراً واحداً (١٥ ايار — ١٥ حزيران). وقد تتكرر الوافدة الواحدة ثلاث سنوات متتابعات، كما حدث في سني ١٧٤٢ و ١٧٤٣ و ١٧٤٤، فلا يعتزل أحد من الافرنج في السنة الثالثة منها. لأن طول الزمن كان قد أضعف جرثومة الداء، واعتياد الخطر خفف من وطأة الخوف..

والعزلة، مهما طالت، لا يتجاوز حدّها الأقصى النصف الاول من آب، كما ان ابتداءها ما تعدّى يوماً أواخر حزيران.

(ملخص عن «رسالة في الطاعون»، بقلم الدكتور بات رسل، طبعت في لندن سنة ١٧٩١)

تساهلوا ، في مستهل عزلتهم ، فتبادلوا وجيرانهم المعتزلين مثلهم الزيارات عن تلك الطريق ، لكنهم لا يستبيحون ذلك التزاور اذا ما استشرى الداء ، واشتدت وطأة الوباء ، مبالغة منهم في الحيطة والحذر ، وخوفاً من ان يكون في اولئك الجيران من لم يتقيّد بنظام العزلة تقيدهم . هذا الى ان بقاء ابواب السطوح مفتوحة لا بدّ ان يغري الخدام بالتسلل الى بيوت الجيران للاجتماع بمواطنيهم ، وفي ذلك ما فيه من محاذير واخطار .

فاذا جاء يوم العزلة أقفل باب الشارع ، باشراف ربّ الدار ، وخُتم بخاتمه ، وسُلّمت المفاتيح اليه . ثم أُغلقت وخُتمت كل نافذة ومنفذ ، في الطبقة السفلى ، يُخشى ان يتسرّب منهما ، خلسةً ، الى الخدام ، ما يرى ساداتهم أن في تسرّبه خطراً على سلامتهم . ومنذ تلك الساعة يصبح سكان الدار جميعاً في عزلة تامة ، ولا يعود يسمح لهم بتلقي شيء من الخارج ، اللهمّ الا الرسائل وبعض الاقوات الضرورية ، على ان يُستعان على تناولها بوسائل الوقاية التي سنذكرها مفصّلة فيما يلي :

في طليعة المشاكل التي تعرض للافرنج في عزلتهم مشكلة الماء ، وتأمين حاجتهم اليومية منه . ذلك لأن معظمهم ليس في دورهم ما

يستقون منه غير ماء حيلان ، يحمل اليهم في القرب وتملأ به صهاريجهم في الربيع . فاذا وقعت عزلتهم في مستهلّ ذلك الفصل ، تعذّر عليهم اختزان ذلك الماء في دورهم واضطروا الى السقيا من خارجها . ولهذه الغاية يفتحون في باب الشارع ثقباً صغيراً مربعاً ، يثبتون فيه ميزاباً من خشب ، ليصب فيه الماء من فم القربة ، ويجعلون لذلك الثقب باباً متحركاً ، وله قفل لا يُفتح إلاّ بحضرة أحد أهل الدار واشرافه ، مخافة ان يتخذه الخدام (باباً للتهريب) ، لما بينهم وبين السقائين من رابطة الجنس واللسان .

أما تموينهم بالطعام ، وحمل رسائلهم ، ونقل اخبار البلدة اليهم ، فيعهدون بها الى رجل ثقة ، يتولى هذه الخدمة مقابل راتب يدفعونه له ، ويلزمونه أن يظلّ طوال النهار بالقرب من دارهم ليتمكّن من تلبية رغباتهم في حينها . ويفردون لهذه الغاية نافذة من نوافذ الطبقة العليا من المنزل ، يعنون في اختيارها ان يكون موقعها بحيث يتسنى لأهل البيت ، في كل حين ، ان يراقبوا اعمال الخدام حولها ، وأن تُطلّ ، ان امكن ، على قسمٍ منزوٍ من الشارع ، دفعاً لتألب الفضوليين هناك عند تناول الاقوات منها .

فاذا جاءهم معتمدهم بالطعام ، دلّوا اليه حبلاً قد عُلّق بطرفه

سطل ، فيلقي فيه الرجل ما حمله اليهم من الاقوات ، ويرفعون السطل اليهم ، حتى اذا بلغ النافذة اخرجوا ما فيه يلقط . فان كان لحماً ، او خضراً ، او ما شا كلها ، طرحوه في منقعة فيها ماء وشيء من الخل ، ثم اخرجوه ، بالملقط ايضاً ، فمرّضوه هنيهة للهواء ، وبعد ذلك سمحوا للطاهي ان يمسّه بيده ، ويُعدّه للطبخ .

وان كان ما في السطل خبزاً ، او ما ضارعه ، مما يتأذى بغمسه في ذلك المزيج ، استعاضوا عن تطهيره بالخلّ ، بنشره برهة في الهواء.

اما الرسائل والأوراق ، فيتداولونها مدرجةً في شقّ قصبة طويلة ، ولا يستبيحون مسّ ما يردهم منها قبل ان ينضحوه ، وهو في شقّ القصبة برشاش الخلّ ، ثم يدخنّوه بمسحوق الكبريت .

وآخر ما يعنون به في عزلتهم التخلّص من الهررة ، فانهم يعدونها من الحيوانات الشديدة الخطر عند انتشار الطاعون ، لما في طباعها من حب الجولان ، والتنقل بين البيوت . فاذا كان لأحدهم قط عزيز عليه ، حبسه في احدى غرف الدار ، او بعث به الى احد موظفيهم ممن يقطنون الاحياء النائية ، كالجديدة مثلاً ، ليحتفظ به حتى زوال الوباء . والويل للقط الغريب ، الشريد ، الذي يسوقه سوء طالعه اليهم ، فانهم لا يمهلونه لحظة ، بل يرمونه ، حالما يبصرونه ،

برصاص بنادقهم، ثم يمسكون جثته بملقط، كي لا تمسها ايديهم، ويقذفون بها الى الشارع [1].

ويقضي الافرنج الاسبوع الاول من عزلتهم وهم في غمّ وقلق وتبرّم بهذه القيود الثقيلة التي كبّلوا بها حريتهم. وقد تمرّ بهم

---

(١) لو عرف المؤلف، في عصره، ما عرفه الطب في عصرنا من الحقائق عن الطاعون، وعن انتقال عدواه بواسطة الجُرَذ والفئران، فرائس الهررة الطبيعية، لما جارى قومه في الحملة على تلك الحيوانات الاليفة، بل لأوصاهم بها خيراً وحرّضهم على الاكثار منها في بيوتهم.

فقد اكّد المحققون أن البقاع التي تكثر فيها الهررة لا يقرّ للطاعون فيها قرار، والتي تخلو منها يفتك بها الفتك الذريع وذلك ما لاحظه وكيل الكولونيل (بوشانان) في الهند، في الوافدات الثلاث التي انتابت تلك البلاد اثناء خدمته فيها. فقد ذكر هـذا الرجل ان قرية تدعى (ايرلا) ظلّت وحدها سليمة وسط الوباء المتفشّي في كل ما حولها، بفضل الهررة الكثيرة التي كانت فيها. وان قرية اخرى تسمّى (اسيكاون) دخلها الطاعون وفيها ثمانية بيوت، سبعة منها كان فيها هررة، فسلمت جميعاً، والثامن خلا منها، فهلك كل ساكنيه.

أما كيف تسلم الهررة عند التهامها الجُرَذ والفئران، فالجواب عليه، كما ظهر للعلماء المدققين، ان هذه الهررة معرضة، في الاحوال العادية، لنوع من الوباء مستقرّ في داخلها، وهو لا يؤثر فيها اكثر من ان ينفخ منها اللوزتين، ولكنه يكون لها بمثابة لقاح يُكسبها مناعة تقيها عدوى الطاعون عندما تدخل جراثيمه في جوفها.

(عن مجلة المسرّة، من مقال طويل نشر في الجزء الثامن عشر من سنتها الخامسة)

ساعات يصوّر لهم فيها الوهم انّ الداء كامن في بعضهم ، وقد تسرّب اليه قبل اعتزاله ، وانه ينتظر ان تتم العدوى دورتها فيه ليظهر [1] . ويساعد على انتشار روح التشاؤم هذه فيما بينهم ما يسمعونه ، من شروق الشمس حتى غروبها ، من أصوات المشائخ ترتفع بالتهليل والتكبير امام الجنائز ، ومن عويل النساء وولولاتهنّ ، تتصاعد في جوف الليل ، ممزقة حجب السكون ، منغّصة على الراقدين طيب المنام.

ثم تمرّ الايام ، وإذا بالقوم قد ألفوا نغمات الحزن ، وصيحات الألم ، حتى لم تعد تفضّ نهم المضاجع ، واذا بالخوف من العدوى قد تلاشى بتقادم الزمن ، وتوارى في ثنايا اللهو ، ومطاوي العمل ، حتى انتهت بهم منغّصات العيش ، ومكدرات العزلة ، الى تأفف خفيف من حالة الاسر التي اختاروها ، وتلهّف طفيف الى الحرية التي اضاعوها عن طواعية ورضىً . على ان ليس معنى هذا ان عواطفهم قد تصلّبت وقلوبهم قد تحجرت ، حتى لم يعد يعنيهم شأن الاهلين الذين قضت عليهم الاقدار ان يظلوا عرضة لغدرات الوباء ، وانه لم يعد يشجيهم فقد

---

(١) يقدّر الدكتور (ورتبات) في كتابه « كفاية العوام » دورة عدوى الطاعون ببضع ساعات الى عشرة ايام .

(المعرّب)

من يُنعى اليهم ، الحين بعد الحين ، من معارف واصدقاء .

اما نزهاتهم اليومية المألوفة على متون الجياد ، فيحاولون ان يستعيضوا عنها بالسير بضع خطوات فوق سطوح دورهم ساعة الغروب ، وهي الساعة التي يظهر فيها كل الافرنج عادة على سطوح منازلهم ، فيتسنى بذلك للجميع ان يتبادلوا النظر والسلام ، بل ان يتبادلوا الحديث والكلام حيثما يسمح بهما قرب الجوار .

وما ان يتوارى الافرنج من الاسواق التجارية ، ومعهم كبار التجار الوطنيين ، من مسيحيين ويهود ، بل من مسلمين ايضاً (على ما تقدَّم به القول) حتى يقف دولاب الاعمال ، وتنقطع حركة الأخذ والعطاء . واذا ما اشتدَّت وطأة الوباء ، توقف سير القوافل القادمة الى المدينة ، حتى لم يعُد يدخلها منها إلاَّ النزر اليسير . اما الاسواق العامَّة فتظلّ مفتوحة كالعادة ، وقد زخرت بمختلف الارزاق والمؤن فما شكا الناس هنا في طاعون من جوع وغلاء . والشوارع ، وإن خلت من ازدحامها المألوف ، لا تخلو ساعة من حركة الاقدام .

اما عن المطعونين واهليهم ، فلا بدَّ لنا من القول ان المسلمين بوجه عام يعودون مرضى الطاعون ، ويشيعونهم الى مقرّهم الاخير ، فعلهم في سائر الاوبئة والامراض .

اما المسيحيون واليهود ، غير المعتزلين ، فلا يعودون من يُطعن من انسبائهم واصدقائهم الاّ في النَدْرة والضرورات القصوى ، ولا يرافق جنازاتهم منهم سوى نفر قليل ، بالاضافة الى حاملي النعش وأحد الكهنة المعينين لهذه الخدمة ، على ان هذا لا يعني ان مرضاهم يُهملون ويُهجرون ، بل لا يزال هناك اجراء وأهل يلازمونهم ويقدمون لهم حاجاتهم ويتوفّرون على تمريضهم وخدمتهم (١).

وما ان يحسّ الاهلون بتقلّص ظلّ الطاعون حتى يعودوا — وقد سئموا كساد التجارة وانقطاع الرزق — الى شنشنتهم المعروفة من التغرير بالافرنج والتمويه عليهم ، لحملهم على الخروج من عزلتهم. واذ كان الجزع من الأسر يمهّد السبيل لتصديق كل ما يوحي بقرب الفرج واستعادة الحرية المفقودة ، فكثيراً ما يحدث ان ينخدع الافرنج

---

(١) ذيّل الدكتور (بات رسل) الصفحة الوارد فيها هذا الكلام بتعليق اقتطفه من الرسالة التي ألّفها في الطاعون قال فيه : « ان ما اختبره بنفسه في الوافدة التي حدثت سنة ١٧٦٠ كان بعيد الشبه عما وصفه اخوه (الكس) . فقد بلغ الخوف من العدوى بالناس أن تعذّر على الكثيرين ان يجدوا من يساعدهم على خدمة مرضاهم ، مهما بالغوا في اغرائهم بالمال . وقال انه عرف بحوادث عديدة ، جرت حتى في الأسر المسلمة ، كانت فيها ربة البيت المطعونة لا تلقى من ذويها الاهمال والأعراض فقط ، بل كثيراً ما كانت بناتها واماؤها يتركنها وشأنها ويهربن من الدار ، فراراً من العدوى !

تلك الاقوال المطمئنة، فيبادروا الى ترك العزلة قبل الأوان، على غير ما تقضي به الفطنة، ويعرضوا نفوسهم بتهوّرهم هذا الى خطر عظيم، كان من السهل اجتنابه، لو هم تريّثوا بضعة ايام فقط: لأن تقلّص الطاعون في زواله، سريع سرعة نموّه في ظهوره.

فاذا اجمع رأي الافرنج على الخروج من معزلهم، كان اول ما يفعلون، بعد ان يفضّوا ختم الباب، أن يقوموا بنزهة، على ظهور الجياد، في الهواء الطلق، يروّحون بها عن نفوسهم عناء الاسر، وضيق الحبس. وانهم ليجدون في هذه النزه لذةً كبرى، ومتعة عظمى، بالرغم من جفاف الحقول، وتعرّي الطبيعة، في فصل الحر الذي هم فيه، من كل خضرة، إلاّ في الحدائق والبساتين. ولا يرافقهم في هذه الجولات الا خادم او خادمان فقط، أما سائر خدامهم فيلزمون البيت، وقد اتخذت التدابير اللازمة لمنعهم من الخروج منه، والاتصال بالناس، ما طالت غيبة سادتهم.

ويظل الافرنج في يقظة وحذر الاسبوع او الاسبوعين. بل انهم ليضاعفون الحذر والسهر، لئلاّ تمرّ هذه الفترة القصيرة بخير وسلام، ولا سيما أن في فتح ابواب الدور اغراءً للخدّام بالخروج منها، لا الى العراء كسادتهم، بل الى الاسواق الضيقة، المقبوءة، القليلة الهواء،

المكتظّة بالناس ، وفيهم الناقه من الطاعون ، والملتاث في بيته بعدوى الوباء .

واخيراً يأتي الفرج ، وتنكشف الغمّى ، وتعود الطمأنينة الى النفوس ، بزوال الخطر ، وانقطاع دابر الطاعون ، فيطرح الافرنج عنهم القيود والاغلال ، وينطلقون الى حياة الحرية والعمل ، سالمين ، ناشطين ، هانئين .

★ ★ ★

نبذة من تاريخ الطاعون

انّ داءً يذهب فريسته ، في سنوات معدودات ، ستون مليوناً من البشر ، كانوا يمثّلون في عصرهم ربع سكان العالم المعروف ، لجدير بكل انسان ان يلمّ ولو بطرف من تاريخه ، ويقف على ما كان له من بعيد الاثر في حياة الممالك والشعوب .

ولقد توقعنا ، ان نجد هذا التاريخ الجامع ، في الباب الواسع الذي افرده المؤلف في كتابه للطاعون ، او في حواشيه وذيوله على الأقل ، ولكنّا لم نعثر إلاّ على نتف من حوادث محلية انحصرت تواريخها في القرن الثامن عشر ، على ما انتهينا من ذكره ، فلم نرَ بداً أن نستعين بأصدق المصادر التي لدينا فنضع هذه النبذة في تاريخ ذلك

الوباء الوبيل ، سداً للثلمة التي خلّفها المؤلف في كتابه ، على خلاف عادته .

إذا ثبت ان الطاعون هو داء الجرذان والفئران ، تنقله الى البشر ، بطريق التلقيح ، براغيث تؤآلف تلك الحيوانات وترتع في لحومها ، جاز لنا ان نفترض ان هذا الوباء عريق في القدم ، بحيث يرقى تاريخه الى اليوم الذي عرف فيه الانسان تلك القوارض واكتوى بقرص براغيثها .

ولعلّ أقدم طاعون ورد ذكره في التاريخ هو الذي حدث حول منتصف المائة السابعة قبل المسيح ، في حكم روملوس ، مؤسس رومة المزعوم ، على ما رواه افلوطرخوس[1] ، المؤرخ اليوناني المتوفى سنة ١٢٠ م . وقد سجّل هذا المؤرخ ، ما عدا تلك الوافدة ، ثلاثاً وعشرين وافدةً اخرى من ذلك الوباء ، حدثت بين التاريخ المذكور وسنة ١٧٦ ق . م . ، في فترات اقصرها سنتان واطولها مائة وسبعون سنة . ولم يتيسر لنا ان نعرف ، فوق ما ذكرنا ، سوى أن احد هذه الاوبئة حدث في اثينا سنة ٥٦٥ ق م ، وحدث غيرها في شمالي افريقيا ، وان معظمها قد تمركز في رومة ، وانها ، على ما يتحصل من كلام تال ،

---

(١) Plutarque

كانت شديدة الفتك في كل بلد ظهرت فيه.

وهناك مؤرخ آخر، أقدم عهداً من افلوطرخوس، وهو المؤرخ الروماني تيطوس ليفيوس المعروف عند الفرنسيين بـ (Tite - Live) وعند الانكليز بـ (Livy) المتوفى سنة ١٩ ق م ، قد اثبت في تاريخه الكبير جميع الأوبئة التي دوّنها المؤرخ اليوناني السالف الذكر ، ولكنه استثنى منها اربعة حدثت قبل سنة ٦٤٠ ق. م. ، وهي السنة التي زعم ان فيها ظهر اول طاعون في البلاد الرومانية. على ان كلا المؤرخين توقّف في تاريخه عند سنة ١٧٦ ق م فما دوّن طاعوناً بعدها.

وسكت المؤرخون بعد ذلك سحابة ٣٦٠ سنة لم يذكروا فيها إلاّ أوبئة خفاف الوطأة ، قصار المدد ، حدث أحدها سنة ٦٨ م ، في حكم الطاغية نيرون ، والثاني في سنة ١٦٧ م في عهد الامبراطور مرقس اوريليوس ، والثالث في سنة ١٨٧ م في عهد الامبراطور قوموديوس.

ولكن ما ان انتصف القرن الثالث الميلادي حتى عاد الطاعون الى الشدة التي عُرف بها في القرون السابقة لمجيء المسيح. فاجتاحت وافدة منه ، سنة ٢٥٠ م ، البلاد الايطالية كلها ، وجميع ولايات السلطنة الرومانية ، وظلت تعصف فيها خمس عشرة سنة (٢٥٠ — ٢٦٥ م) ،

وبلغ عدد ضحاياها في رومة، في بعض السنوات، خمسة آلاف نفس في اليوم. وقُدّر عدد من أودت بهم في الاسكندرية اكثر من نصف سكانها، وهلك من جرّائها خلق لا يحصى عددهم، وامّحت بها مدن كثيرة من الوجود[1].

ثم عاد هذا الداء الى المهادنة، فطالت مدة هدنته هـذه نحواً من قرن ونصف القرن، ظهر بعدها في ايطاليـة وسورية سنة ٣٨٣/ ٣٨٤م. وفي اوروبا كلهـا سنة ٤٠٧/ ٤٠٨ م. وفي القارات الثلاث (آسيا واوروبا وافريقيا) سنة ٤٤٥ م، ولم ينقطع دابره منهـا حتى سنة ٤٥٠ م.

واخيراً جاء الطاعون الاكبر، وهو الذي يعتبره معظم المؤرخين اول طاعون دمّلي أسيوي عرفه الغرب[2]. وقد شمل كل اقطار العالم المعروف يومئذٍ، ودام اثنتين وخمسين سنة (٥٤٢ ـ ٥٩٤ م)،

---

(١) عن المؤرخ الانكليزي جيبّون (١٧٣١ — ١٧٩٤) في كتابه: « انحلال وسقوط السلطنة الرومانية »

(Jibbon : " Decline and Fall of the Roman Empire „)

(٢) نصّ العلامة الشيخ ابراهيم اليازجي على ان لفظة « طاعون » لا تطلق الاّ على الداء الذي يلازمه الدمّل والجمر. ولذا كان هذا الطاعون اول وباء حقّ أن نسميه بهذا الاسم بين سائر الاوبئة التي عددناها.

فلم يبقِ ولم يذر . ورافقته مجاعة هائلة أكل فيها الناس جذور الشجر ولحوم البشر .

اما النتائج التي انتهت اليها هذه الداهية الدهياء ففوق ما يتصوره العقل . وحسبنا ان نقول عنها انها حوّلت مجرى التاريخ ، ونقلت مركز السيادة العالمية من الشمال الى الجنوب، ومن الغرب الى الشرق، فقد حدثت هذه الكارثة والعالم المسيحي في اوج عظمته ، والسلطنة البيزنطية في ذروة مجدها وسؤددها ، على رأسها العاهل العظيم يستينانس (٥٢٧ — ٥٦٥ م) مجدد عهد الامبراطورية الرومانية ، ومحيي حضارتها ، وباعث شرائعها (وهي الشرائع التي لا تزال تنطق باسمه الى هذا اليوم) . وكان هذا الملك قد استهلّ حكمه بسلسلة من الفتوحات الباهرات ، عن يد قائده الاشهر باليساريوس (٤٩٤ — ٥٦٥ م) أعادت الى امبراطورية رومة معظم الممتلكات التي كان البرابرة والفرس قد انتزعوها من اسلافه في افريقيا وايطاليا واسبانيا وسوريا . . . ولكن ما كاد الموت يغمض عيني هذين الرجلين العظيمين، حتى كان الطاعون والقحط والمجاعة قد فعلت فعلها الذريع في جيوشهما الجرارة ، فحوّلتها الى شراذم ممزّقة ، وفلول مبعثرة ، عاجزة عن حماية تلك السلطنة الواسعة الارجاء ، وعن دفع غارات الشعوب الاسيوية ،

ـ الغريبة الدين والجنس واللسان ـ التي اخذت ، منذ مستهل القرن السابع ، تتدفق عليها من الجنوب والشرق والشمال : عرباً واتراكاً ومغولاً وصقالبة ، ودخلت الامبراطورية البيزنطية من ثم في دور النزاع ، وطال نزاعها ثمانمائة سنة . وكان نزاعاً أليماً ، تخللته صحوات قصار المدى، وانتهى سنة ١٤٥٣م بدخول الاتراك العثمانيين القسطنطينية وقضائهم على آخر تراث خلفته الامبراطورية الرومانية فيها (١).

وكأني بالطاعون قد سئم طول المُقام في ديار الغرب ، وأبى إلاّ ان يظلّ سائراً في ركاب الفاتحين ، فتحوّل الى الشرق . ففي السنة الثامنة عشرة للهجرة (٦٣٠ م) في خلافة عمر بن الخطاب ، ظهر في معسكر المسلمين في عمواس ، بجوار القدس ، ودام شهراً واحداً ، ومات به ، على قول ابن الاثير ، خمسة وعشرون الفاً من مقاتلة العرب ، وفيهم ابو عبيدة قائدهم العام . وكان هذا اول طاعون في الاسلام .

ثم تتابعت الطواعين في الشام والعراق ، سحابة حكم الأمويين ، ففي خلافة معاوية كان الطاعون في البصرة سنة ٥٣ هـ ، وبه مات زياد ابن ابيه ، خطيب العرب الاشهر وعامل معاوية على العراقين . وفي

---

(١) بتصرّف عن المؤرخ الانكليزي جورج فنلي (١٧٩٩ — ١٨٧٥) في كتابه : « اليونان في حكم الرومان »
(J. Finly : « Greece under the Romans »)

خلافة مروان بن الحكم كان ذلك الوباء بالشام سنة ٦٤ هـ ، وكان من ضحاياه معاوية الثاني بن زياد ، بُعيد أن اعتزل الخلافة . وفي خلافة عبدالملك بن مروان أصاب الشام طاعون شديد كاد يفني الناس، حتى امتنعت معه الصائفة [1] تلك السنة، وفي خلافة هشام بن عبدالملك انتاب هذا الوباء الشام مرتين: مرة سنة ١٠٨ هـ ومرة سنة ١١٥ هـ . ودام عدة سنين وسرى الى العراق .

والراجح ان هذه الطواعين المتكررة التي نكبت بها مدن الشام في تلك الحقبة القصيرة هي التي حملت معظم الخلفاء الامويين على هجر دمشق والاقامة في اطراف البادية .

أما في العصور العباسية ، فأهم طاعون وقفنا عليه هو الذي حدث في اذربيجان سنة ٢٨٨ هـ ، في خلافة المعتضد بن الموفق ، على ما رواه الشيخ محيي الدين الخياط في كتابه : « دروس التاريخ الاسلامي » : « وقد مات به خلق كثير حتى فقد الناس ما يكفنون به الموتى فصاروا يطرحونهم في الطرقات » .

واذا تابعنا صعودنا في سلّم التاريخ وجدنا هذا الوباء ينتاب مصر مراراً في خلافة المستنصر الفاطمي من سنة ٤٥٧ الى سنة ٤٦٤ هـ.

---

(١) غزوة الصيف

على ما ذكره المقريزي في مؤلفه «الخطط والآثار». وقد انتابها ايضاً سنة ١٢٠٠ و ١٢٠١ م، في زمن الملك العزيز بن صلاح الدين، على ما وصفه عبداللطيف البغدادي الطبيب.

وفي سنة ١٢٧٠ م كان ذلك الوباء في تونس، وبه مات لويس التاسع القديس، ملك فرنسا، في الحملة الصليبية الثامنة والاخيرة.

على ان كل هذه الطواعين التي عددناها كانت قصار الاعمار اجمالاً، خفاف الوطأة، اذا ما قيست بالطواعين التي سبقتها، وبالتي عقبتها خاصة، وليس فيها ما تجاوز هذه البقعة من الشرق التي اطلقوا عليها اسم الشرق الاوسط، وما اتخذ يوماً شكل كارثة عالمية.

ولكن ما كاد ينتصف القرن الرابع عشر الميلادي حتى فوجىء العالم بطاعون جارف، لم تعهد البشرية له مثيلاً في غابرات العصور، اجتاح، في بضع سنوات، قارّات العالم القديم الثلاث، زارعاً الهول والهلاك في كل بقعة نزل فيها. وقد اشتدّت وطأته في اوروبا خاصة، وسُمّي بالموت الاسود « The Black Death »[1]، او الوباء الاسود. وقُدّرت ضحاياه فيها بخمسة وعشرين مليوناً من النفوس، وهو ما كان يعادل ربع سكان تلك القارة يومذاك. ومنهم من قدّرهم بأكثر

(١) لاسواد البشرة بالدم المتفجّر من الشرايين والمنتشر تحتها.

من ذلك ، فرفع النسبة الى الثلث ، بل الى النصف . وقد قدّر البابا أكلمنضوس السادس مجموع من أودى بهم هذا الوباء الوبيل في العالم القديم بنحو ٤٢٬٨٠٠٬٠٠٠ .

وقد اختلفت الآراء في منشأ هذا الوباء ، والمرجّح انه ظهر ، اول ما ظهر ، في الصين ، سنة ١٣٣٣ م ، ومن هناك تسلل الى سواحل البحر المتوسط عن طريق القوافل العام ، وامتدّ الى اوروبا الجنوبية ، حتى عمّ في سنوات قلائل (١٣٤٧ — ١٣٥١ م) ، اوروبا كلها . ومما زاد في شدّة فتكه ازدحام المدن ، وضيق شوارعها ، وانعدام مقتضيات الصحة فيها ، وبؤس الطبقات الفقيرة ، وجهل الاطباء .

وقد أسهب مؤرخو تلك الأيام ، في وصفه بما ترتعد له الفرائص ، وتهلع القلوب : فهناك قرى لم يعد فيها من الاحياء من يلزم لدفن الموتى ، حتى أضطرّ المنازعون الى حفر قبورهم بأيديهم . وكنائس هجرها المصلّون لموت كل كهنتها . وأديار عامرة كادت تُقفر وتُقفل ابوابها لكثرة من فني من رهبانها وراهباتها . وقد كنت ترى جثث الموتى ملقاة في مفارق الطرق ، عارية او شبه عارية ، تنتظر العربات الخاصة المعدّة لنقلها الى الحفر العامة التي ستطرح فيها ، والسفن تسير في البحر المتوسط او البحر البلطيقي ، تتقاذفها الامواج ،

وتتلاعب بها العواصف ، وليس فيها حيّ ، فقد ذهب كل من كان فيها فريسة الوباء ، والبهائم والمواشي تسيب في المزارع ترعى الحنطة وليس من يصدها . وقد تُركت الحقول دون حصاد ، فتعفنت الغلال وتلفت . وهجر الناس المدن فتوقف دولاب الاعمال ، وأُقفلت المتاجر ، وانقطعت الارزاق من الاسواق ، وارتفعت اسعار الاقوات ، وخفت جعجعة المطاحن ، وتعالت في الاحياء والشوارع اصوات العويل والنحيب ... وعلى الجملة فقد كانت اعظم كارثة حلّت بالجنس البشري منذ عهد الطوفان ...

ولم يفت هذا الوباء ان يعرّج في طريقه على حلب ، شأنه في كل زيارة يقوم بها الى الشرق . وقد وصفه شيخنا الغزي في تاريخه « نهر الذهب » ، وصفاً مستفيضاً ، على خلاف عادته في الكلام على سائر الطواعين التي حدثت فيها (وقد ذكر منها / ٢٠ / انتابتها بين سنة ٦٥٦ هـ وسنة ١٢٢٩ هـ). قال رحمه الله : « وفيها (٧٤٩هـ =١٣٤٨م) كان الفناء العظيم والطاعون العميم ، الذي جاز البلاد والامصار ، واخلى الديار والبيوت ، واوقع الناس في علة السكوت . وكان اذا طُعن به انسان لا يعيش اكثر من ساعة رملية ، واذا عاين ذلك ودّع اصحابه ، وأغلق حانوته ، وحضّر قبره ، ومضى الى بيته ومات . وقد بلغت

عدة الموتى في حلب في اليوم الواحد خمسمائة ، وبدمشق الى اكثر من الف . ومات بالديار المصرية في يوم واحد نحو عشرين الفاً ، هكذا ورد الخبر . واستمر نحو سنة ، وفني به من العالم ثلثاهم ... ولو رأيت بحلب الاعيان وهم يطالعون من كتب الطب الغوامض ، ويكثرون في علاجه من اكل النواشف والحوامض ، ويستعملون الطين الارمني ، وقد بخّروا بيوتهم بالعنبر ، والكافور والصندل ، وتختّموا بالياقوت ، وجعلوا الخلّ والبصل من جملة الأدم والقوت .. »

وظلّ هذا الوباء الفتاك يعصف بالناس خمسة اعوام مجرّمة ، متنقلاً بين الممالك شرقاً فغرباً ، وغرباً فشرقاً ، حتى انتهى به المطاف الى روسية ، سنة ١٣٥١ م وفيها لفظ انفاسه الاخيرة ، بعد أن بلغ اليأس ببعض ضعاف النفوس أن توهموا انه لن يفارق العالم حتى يأتي على كل ذي روح فيه !

وبديهي ان لا تنجلي مثل هذه الكارثة العظمى دون ان تترك وراءها اثراً في البلاد التي نزلتها . وكان من ابرز تلك الآثار تحوّل انكلترا من بلاد زراعية الى بلاد صناعية . فان هلاك العديد من فلاّحيها بالوباء ، وما بدا يومئذٍ في اوروبا من حاجة ملحّة الى الصوف ، حمل اصحاب الاراضي في انكلترا على ان يحوّلوا معظم مزارعهم الى

مراعٍ للاغنام، استفادةً من صوف تلك القطعان، واجتزاءً بالقليل من الرعاة القنعين عن الكثير من الزراع الجشعين. وكانت تلك الخطوة حجر الزاوية في بناء صرح الصناعة الانكليزية المنيف [1]

لم ينقطع الطاعون عن اوروبا انقطاعاً تاماً بعد تلك النكبة التي انزلها بها، بل ظلّ يتردد اليها الحين بعد الحين، متنقلاً بين مختلف اقطارها، محمولاً اليها في السفن القادمة من الهند، موطن الطاعون، او من الموانىء الموبوءة في البحر الابيض المتوسط.

ولكن ما أن انتصف القرن السابع عشر حتى كان ولاة الشأن في تلك القارة قد اهتدوا الى الاسباب التي بها ينتشر الوباء في ربوعهم وتنتقل عدواه بينهم. ومنها توصلوا الى اعداد خطة فعّالة تتكفّل بحصر الداء في البقعة التي يظهر فيها، ثم القضاء عليه، حيث هو، القضاء المبرم [2]. ولنا فيما جرى في لندن سنة ١٦٦٤ / ١٦٦٥ مثال على

---

(١) عن كتاب مدرسي انكليزي عنوانه: « دروس التاريخ للجيل الجديد »
« New Age History Reader » (Book IV)

(٢) تتلخص تلك الخطة، كما جرى في لندن، بالحجر على السفن القادمة من مناطق موبوءة، ومنع تفريغ حمولتها قبل التثبّت من سلامتها، واغلاق ابواب المدينة في وجه كل قادم وراحل، واقامة حرّاس امام بيوت المطعونين يمنعون الدخول اليها والخروج منها في النهار والليل، وتوسيع

ما يفترض ان يكون قد جرى في غيرها . فقد تفشّى في هذه المدينة الكبيرة طاعون هائل ، أهلك في بضعة أشهر ما لا يقل عن مائة الف شخص من سكانها — وكانوا لا يزيدون يومئذٍ على الأربعمائة الف — ومع ذلك فقد تمكّن المسؤولون هنالك من حصر الداء في حدود تلك المدينة ، فلم يتجاوزها حتى الى القرى المجاورة . وقد كانت تلك الوافدة آخر العهد بالطاعون في جميع بلاد المملكة البريطانية .

واول البلاد الأروبية التي كتب لها النجاة من براثن ذلك الوباء الوبيل والتحرر من اساره الى غير رجعة ، هي الدنمرك ، وكانت نجاتها سنة ١٦٥٤ . وعقبتها السويد سنة ١٦٥٧ . ثم انكلترا سنة ١٦٦٥ ، كما تقدم به القول . ثم سويسرة سنة ١٦٦٨ . ثم هولاندة سنة ١٦٦٩ . ثم اسبانيا سنة ١٦٨١ .

أما فرنسا ، ذات الموانىء المديدة على المتوسط ، والتي كانت يومئذٍ كثيرة الاتصال ببلاد الشرق القريب ، فقد كانت سواحلها الجنوبية خاصةً عرضةً لكثير من هجمات الطاعون وفتكاته ، ولم يكتب

الشوارع وتنظيفها من القمام والاقذار ، ومنع المتسولين من التنقل فيها بالاطمار والاسمال ، وتحسين احوال الطبقة الكادحة ، وغير ذلك من التدابير الصحية الوقائية التي من شأنها الحدّ من نشاط الوباء ومنع سريانه .

(المعرّب)

لها النجاة من شرّه إلا في سنة ١٧٢٠ . ومثلها ايطاليا ، فقد ظلّت تعاني منه الأمرّين حتى سنة ١٧٤٣ .

وانقطع دابر هذا الوباء ، من معظم القارة الاروبية في القرن الثامن عشر ، ولكنه ظلّ يتسكّع في شرقيها حتى منتصف القرن التاسع عشر . بل لعله كان فيها ، في هذا القرن ، أشدّ فتكاً منه في القرون السابقة . فقد هلك به في الآستانة ، مثلاً ، سنة ١٨٠٨ مائة وخمسون الف نفس ، وكانت الاستانة ، في تلك الحقبة ، جسراً يعبر منه الوباء الى روسية ، ورومانية ، واليونان ، والبلاد الواقعة على ضفاف الدانوب ، وساحل الادرياتيك الشرقي .

وفي هذا القرن التاسع عشر كان الطاعون شديد الوطأة ايضاً في سورية والاناضول وشمال افريقية ، ولا سيما مصر ، فقد قُدّر عدد وافداته في هذا القطر المصري ، في الحقبة الواقعة بين سنة ١٧٨٣ وسنة ١٨٤٤ (اي في حوالي ستين سنة) باحدى وعشرين وافدة ، حتى ذهب بعضهم الى انه ينشأ في وادي النيل رأساً ، ويتفشّى بسهولة لتوافر اسباب الوبالة فيه .

ولكن قبل ان ينتصف هذا القرن التاسع عشر كان ظل الوباء قد أخذ يتقلّص عن جميع البلاد التي ذكرنا . ففي سنة ١٨٣٧ انقطع

داره في سورية ، والاناضول ، والجزائر ، ومرّاكش . وفي سنة ١٨٣٩ زال من الآستانة وما جاورها من البلاد الاروبية . وكان آخر العهد به في مصر سنة ١٨٤٤ . وفي طرابلس الغرب سنة ١٨٥٦ .

على انه ، وان انسحب من سواحل المتوسط ، فقد ظلّ يتابع سيره في الجزيرة العربية ، وفي العراق . وقد انتاب عسير من ارض اليمن من سنة ١٨٣٥ الى سنة ١٨٨٩ . وظهر في بغداد سنة ١٨٦٧ ، بين العرب النازلين بعبر الفرات ، على طريق كربلاء ونجد . وأعاد الكرة على بغداد سنة ١٨٧٣ ، ولبث فيها الى سنة ١٨٨٠ ، وهذا ما حمل الكثيرين على عدّ العراق من مواطن الطاعون الدائمة .

وحلّ هذا الوباء في بلاد العجم سنة ١٨٦٣ ، وظل فيها حتى سنة ١٨٧٥ ، فزار أذربيجان و كردستان وخراسان وغيرها من بلاد تلك المنقطة . ومن هناك انتقل الى استراخان ، من أعمال روسية ، ولكنه لم يتجاوزها لأن التدابير الصحية الصارمة التي بادرت الحكومة هناك الى اتخاذها ، أوقفته عند حدّه وحالت دون انتشاره .

وقبل ان يلفظ القرن التاسع عشر انفاسه ، اجتاح العالم طاعون جارف ، بدأ بهونغ كنغ في الصين سنة ١٨٩٤ ، وانتهى بغلاسكو في

انكلترة . وقد افتتح دورته هذه بجولة طويلة في مختلف البلاد الصينية، تحوّل بعدها الى الهند ، فـدخل بومباي سنة ١٨٩٦ ، ووصل الى كلكتا سنة ١٨٩٩ . وفي هذه السنة عينها زار اليابان ، واستراليا ، وجنوب اميركة، والهند الغربية. ثم انتقل الى مدغشكر فالاسكندرية، فروسية . وعرّج على مرسيليا ، فابورتو (في البرتغال) فهمبرغ ، وانتهت به خاتمة المطاف الى غلاسكو .

فاضطربت اروبا كلها لتلك الزيارات غير المستحبَّة ، وخشيت ان يعيد الوباء كرته الاولى ، فسارعت الى دفع الخطر ، وصدّ ذلك التيّار الجارف ، وتمكّنت ، بعد لأي ، من حصره في الاماكن التي انتهى اليها ، ومنعته من الامتداد الى المدن المحجور عليه دونها .

على ان وافدة سنة ١٨٩٤ المشار اليها كانت فاتحة عصر جديد في تاريخ الطاعون ، اذ سجّل فيها العلم نصراً مبيناً على هـذا الوباء الوبيل ، باكتشافه جرثومته الخاصة التي منها يتولد ، وبها تنتقل عدواه . وكان الفضل في هذا الاكتشاف العظيم لطبيبين مختلفي الجنس واللسان ، كانا يعملان منفردين في منطقة الوباء الصينية : أحدهما ياباني ويدعى س. كوتازاتو (S. Kutazato) ، والآخر سويسري ويدعى آ. يرسين (A. Yersin) . وكان يرسين هذا من

تلامذة باستور النابغين. ولم يقنع بالفوز الذي ناله، على خطورته، بل انتقل الى باريس، حيث راح يعمل مع رصفائه في معهد باستور على استنباط مصل شافٍ وواقٍ من ذلك الوباء المخيف.

وبعد تجارب عديدة في الحيوانات والبشر اعلن عن نجاحه في ايجاد ذلك المصل بنوعيه المذكورين. (وهما اللذان قال فيهما الدكتور شكري بوطاجي في كتابه «الدليل الامين في الصحة والمرض» ان الشافي منهما قد انزل معدل الوفيات من ٩٠ ٪ الى ٢٥ ٪، وان الواقي أفاد ٨٠ ٪ ممن لقّحوا به).

وحرّكت هذه الاكتشافات الخطيرة كامن الهمم في نفوس العلماء وحفزتهم الى مواصلة الكفاح للقضاء على ذلك الداء القتال. وكانت لا تزال امامهم مسألة عويصة: هي مسألة العدوى، والطريقة التي بها تنتقل العلة الى الناس. وقد تضاربت في تعليلها الآراء وتشعّبت المذاهب: فمن قائل انها الهواء، ومن قائل انها الماء، ومن قائل انها اللمس، ومن قائل غير ذلك. فكان لا بدّ من درس المعضلة في مناطق الوباء نفسها. فانتقلت بعثة منهم الى الهند وراحت تتحرّى الحقائق، وتتقصّى الحوادث، وتستنطق الاهلين. فتبيّن لها أن الهنود اذا رأوا الفئران تزأم (تموت بسرعة) استدلّوا على حلول

الوباء فتركوا قراهم وولوا الأدبار . وتحققوا ايضاً أن الطاعون اذا نزل بأرض ، كان الموت في الناس وكان الموت في الفئران والجرذان في آن واحد . فراحوا يدرسون هاتين الظاهرتين حتى كُشف لهم أن القوارض ، وفي طليعتها الفأر ، فالجرذ ، فالأرنب ، هي اكثر الحيوانات تأثراً بجرثومة الطاعون : فاذا ظهر في مكان ما ، كانت هي اولى ضحاياه ، ومنها تنتقل عدواه الى البشر . أما واسطة العدوى فقد وجدوها في البراغيث التي تعشّش في اجسام تلك القوارض ، فهي التي تنقل جرثومة العلة من الحيوان الى الحيوان ، ومن الحيوان الى الانسان ، اذا ما عضته بعد ان تكون قد عضّت حيواناً مطعوناً .

وكان فيما قرره العلم ايضاً ان الهواء يحمل جراثيم العلة وينقلها من مكان الى آخر ، وان هذه الجراثيم تتطرق الى الجسم بطريق الاستنشاق ، وان الذباب ينقلها ايضاً من العليل الى الصحيح ، وقد وجدها يرسن في امعائه . اما الماء فلا يكون في الحالة الطبيعية حاملاً لهذه الجراثيم . وقد ثبت بالمراقبة ان مجاري المياه الكبيرة تعترض انتشار الوباء فلا يتعداها . ففي الوافدة التي حدثت في لندن سنة ١٦٦٥ التجأ ١٠٠٠٠٠ شخص الى السفن والمراكب الراسية في التاميز فلم يطعن منهم أحد .

وفي وافدة سنة ١٨٩٤ فرّ ٨٠٠٠٠ نفس من اهالي كنتون الى السفن وسلموا جميعاً (١).

وهكذا يهتك العلم استار هذا العدوّ اللدود، وينفذ الى قلاعه وحصونه، وينتزع منه سلاحه وعدته، ويهدم له عرشاً تبوأه دهراً باسم « ملك الهول والفزع ».

ومع ذلك فسيظل الطاعون سيفاً مصلتاً فوق الرقاب ما دامت هناك بلاد اسمها « الهند » تستفرخ جرثومته في مضاحلها، وتحتضنه في مناقعها، وتضحّي له في كل عام ما لا يقل عن المليون من ذوي الفقر والجهل من انائها.

* * *

هذه خلاصة ما تيسر لنا الوصول اليه من تاريخ الطاعون، راعينا في سردها الصدق والايجاز، والتسلسل. ولئن امتدّ بنا فيها نفس الكلام بعض الشيء، فان لنا من خطورة موضوعها، وتشعّب

---

(١) كثير مما جاء في كلامنا عن سير الطاعون، وعن اكتشاف جرثومته، والمصل الواقي والشافي منه، بنوع خاص، منقول بتصرّف عن مجلة « البيان » التي كان يصدرها في مصر سنة ١٨٩٧ الشيخ ابرهيم اليازجي والدكتور بشارة زلزل.

اطرافـه، ما يشفع بنا لدى قرائنا الكرام. وحسبنا اننا قدمنا لهم في صفحات قـلائل ما يتعـذّر عليهم الحصول على مثله في غـير الموسوعات النادرة، والكتب العلمية العويصة، وكلها مفقود او شبه مفقود في لغة الضاد.

ذيل ثانٍ

في الولايات العثمانية في القرن الثامن عشر

وهو قسمان :

قسم اول : يبحث في الولايات العثمانية بوجه عام

وقسم ثانٍ : يبحث في ولاية حلب بوجه خاص

هذا ذيل ثان ساقنا الى وضعه الحديث عن الافرنج فى حلب . وهو ما وعدنا به القراء في الحاشية التي وطأنا له بها ، تعليقاً على زيارات القناصل لرجال الحكم والسلطان . ويتناول حديثنا في هذا الذيل نواحي طريفة من تاريخ العثمانيين في هذه البلاد قلَّ من تقصَّاها من كتابنا العرب المحدثين ، على ما نعلم . وقد كان دليلنا في معظمها كتاب الدكتور بات رسل [1] . وما لم نستقه من هـذا الينبوع اشرنا الى مصدره فى محله .

وكلا قسمي الذيل متلازمان ، متكاملان . فـفي القسم الاول

---

(١) حلب في القرن الثامن عشر ، الطبعة الثانية ، المجلد الأول ، الباب الثاني ، الفصل السابع .

منهما حاولنا ان نرسم صورة مصغّرة لما كان عليه الحكم العثماني في الولايات ، في الحقبة الطويلة المعروفة « بحقبة ما قبل التنظيمات» .

اما القسم الثاني من الذيل ، فان كنا قد قصرناه على ولاية حلب ، فانما كان ذلك القصر اجتزاءً بالبعض عن الكل ، لاعتبارنا ان هناك نظاماً واحداً كان يطبّق على الولايات كافةً ، بحيث ان ما كان يجري في حلب ، انما كان يجري مثله فيما داناها او نأى عنها من سائر الولايات .

القسم الاول من الذيل الثاني

في الولايات العثمانيـة حتى عهـد التنظيمات

مواضيع البحث

الولايات العثمانية حتى عهـد التنظيمات — تقسيم سوريا الى باشاويات — اركان الحكومـة الثلاثـة — بيع مناصب الدولة بالمزايدة — ما جرّته تلك الطريقـة من البلاء على البـلاد — حكاية مقتل أسعـد باشا العظم. الانكشارية ونبـذة من تاريخهم — كيف بدأوا وكيف انتهوا.

الولايات العثمانية حتى عهد التنظيمات (١)

كانت السلطنة العثمانية، حين افتتحت جيوشها سوريا، مقسّمة

(١) يراد بالتنظيمات سلسلة من القوانين التي أصدرها السلطان عبدالمجيد لاصلاح الحكم في البلاد العثمانية. وقد استهلّها بالفرمان الذي أذاعه عنـد تسنّمه العرش سنة ١٨٣٩، (وهو المعروف بخط الكلخانه) وبـه أبطل مبدأ اعطاء الولايات بالالتزام، واصلح الضرائب والمكوس، ووكل امر جبايتها الى موظفين مرجعهم نظارة المالية في الآستـانة. ثم أعقبه، سنة ١٨٥٦، بفرمان ثانٍ ساوى فيه بين المسلمين وغير المسلمين في الحقوق والواجبـات، وأعفى غير المسلمين من الجزية التي كانوا يدفعونها باسم الخراج. غير انّ هذا الاصلاح المزدوج بقي حبراً على ورق، او (سفتجة غير مدفوعة) كما دعاه الكونت خورتشاكوف الروسي، لما لاقى من شديد المعارضـــة في بادىء الامر. ولم يطبّق فعلاً ويعمّ جميع الولايات الاّ حوالي سنة ١٨٧٠.

(المعرّب)

اداريا الى ولايات ، ثم الى سناجق . وكان القائمون على ادارة الولايات يُعرفون بالباشاوات ، اذ كانوا على الغالب من وزراء الدولة ، او ممن يحملون رتبة بكلربكي (اومير ميران = امير الأمراء) ، التي كانت تخولهم حق التلقّب بالباشا ، وباسمهم دعيت الولايات باشاويات .

تقسيم سوريا الى باشاويات

وقد قُسمت سوريا في مستهل عهدها العثماني الى ثلاث باشاويات كبيرة ، وهي باشاوية الشام ، وباشاوية حلب ، وباشاوية طرابلس . ثم انضمت اليها صيدا في سنة ١٦٦٠ ، ففلسطين في اوائل القرن الثامن عشر ، فعكا في أواخره .

ولكن التنظيم الاداري الذي تمّ سنة ١٨٨٠ ، وبه رُبطت الولايات جميعها رأساً بالآستانة ، قضى على معظم تلك الباشاويات ، ولم يبقِ إلاّ على اثنتين فقط ، وهما الشام وحلب . ثم انضمّت اليهما بيروت سنة ١٨٨٨ ، فصارت الولايات السورية ثلاثاً ، وظلّ هذا عددها ، وتلك اسماءها ، حتى قيام الحرب العالمية الاولى ، بجلاء الاتراك عن هذه البلاد (١) .

---

(١) H. Lammens: La Syrie, Précis Historique, vol. 2. P.191 / 192

ارکان الحکومة الثلاثة

اما جهاز الحكم في هذه الولايات، او الباشاويات، قبل عهد الاصلاح، فقد كان قليل الشبه بما صار اليه بعده، ولا سيما ما صار اليه في هذه الايام من تنظيم اداري، وتشعّب دوائر، ووفرة عدد الموظفين. فقد كان هناك والٍ وقاضٍ ومحصّل: اركان ثلاثة يسيطرون على جميع شؤون الولاية، ويتوزّعون فيما بينهم مهامّها الادارية والقضائية والمالية، يساعدهم بعض الموظفين الثانويين، على ما سنفصله فيما بعد.

بيع مناصب الدولة بالمزايدة

ولم يكن لاولئك الموظفين الثلاثة، ولا لغيرهم من الموظفين الذين تعينهم الآستانة، رواتب محدودة يقبضونها من صندوق عام، في تاريخ معلوم، كما هي عليه الحال اليوم، بل كانت تلك المناصب تباع من الأحظياء والمقرّبين ببدل معيّن يتعهدون بتأديته الى خزينة السلطان من غلاّت وظائفهم، بعد تسلمهم اياها.

واليك جدولاً بأثمان الوظائف الرئيسية في الولايات السورية، كما قدّرها أحد فضلاء البنادقة:

الولاية : / ٨٠،٠٠٠ / الى / ١٠٠،٠٠٠ / دوقة ذهبية
الدفترداریة، او وظیفة المحصّل : / ٤٠،٠٠٠ / الى / ٥٠،٠٠٠ / دوقة ذهبية (١)
القضاء : ما يعادل ثمن الدفترداریة او ينقص عنه قليلاً

اما لبنان فقد كان منذ حكم فخر الدين المعني (١٥٨٥—١٦٣٥)، حتى غزوة ابرهيم باشا المصري سنة ١٨٣١، ينعم بحرية واستقلال نسبيين بفضل مناعته الطبيعية، وسياسة حكامه الوطنيين الحكيمة، وعطفهم على مصالح الشعب، ومعاملتهم اياه باللطف المشوب، عند الحاجة، بالحزم والشدة، وبما كانوا يدفعونه مساناةً لخزينة السلطان من اتاوى بلغت، بتقدير أحد الممثلين السياسيين الفرنسيين، الذي زار لبنان سنة ١٦٢١، / ٣٤٠،٠٠٠ / ليرة فرنساوية، من مجموع واردات الجبل البالغة / ٩٠٠،٠٠٠ / ليرة (٢)

وكانت الباشاويات، كما ذكرنا سابقاً، مقسمة الى سناجق،

---

(١) تقدَّر الدوقة الذهبية، بحسب القواميس الانكليزية التي لدينا: بتسعة شلينات واربعة بنسات، أي ما يقارب نصف ليرة عثمانية ذهباً، بحساب الليرة الانكليزية / ١١٠ / غروش عثمانية، فيكون ثمن الولاية من / ٤٠،٠٠٠ / الى / ٥٠،٠٠٠ / ليرة عثمانية، وهلمَّ جرًّا.

(المعرّب)

(٢) كانت الليرة الفرنساوية تساوي فرنكاً واحداً فقط، على قول الأب لامانس في تاريخه:

La Syrie, Précis Hist. vol. 2, P. 80.

وكان عدد هذه السناجق يراوح بين الخمسة والعشرة، بالنسبة الى صغر الولاية او سعتها، وعلى رأس كل سنجق موظف يعرف بالسنجقدار [1]، يعينه الوالي ويرجع في اموره اليه. ومهمة هذا السنجقدار الرئيسية مساعدة الوالي في جباية الضرائب والرسوم، وجمع العسكر للحرب، عند الحاجة. وكانت السناجق تباع، على الغالب، بيع السلع، ممن يدفع للباشا أغلى ثمن [2].

ولما اشتدت بالدولة الحاجة الى المال، اثر الحروب التي توالت عليها، والانكسارات التي اخذت تمنى بها منذ مطلع القرن الثامن عشر، وما تبعها من ضياع بلاد ودفع غرامات، لم يعُد السلاطين يقنعون بما كانوا يتناولونه ثمناً لولاياتهم، بل صاروا يعرضون تلك الولايات على البيع بالمزايدة — ومنهم من اشتطّ فاشترط دفع الثمن سلفاً — على ان يتعهد من يفوز بالولاية ان يقدم ايضاً عدداً مفروضاً من الجنود، يجهزهم وينقلهم على نفقته الى الآستانة، كلما دعاه الى ذلك داعي الحرب [3].

---

(١) وهو الذي سمّي فيما بعد متصرفاً. اما القائمقاميات ومديريات النواحي فمن مستحدثات «التنظيمات» (المعرّب)

(٢) الامير علي الحسني: تاريخ سوريا الاقتصادي، الصفحة ١٤٩

(٣) الامير علي الحسني، تاريخ سوريا الاقتصادي، الصفحة ١٤٨

ولم يعد يُنظر، في تقليد الوظائف، الى جدارة الرجل وفضله، ونزاهته وعدله، بل الى ضخامة المبلغ الذي يدفعه، والرشى التي يستعين بها على التقرّب من بطانة السلطان. ولكم جرّ هـذا النظام الفاسد على البلاد من بلاء، وكم نال الناس بسببه من جور وعسف وارهاق! وحسبنا ان نقول فيه انه صرف ارباب الحكم عن الاهتمام بأحوال الرعية الى الاهتمام بجمع الأموال، بالحلال او بالحرام، واستنباط الحيل الشيطانية لابتزازها، واغتصاب ما في ايدي الناس منها: لأنّ في المال وفاء للعهود التي وقّعوها، والنقود التي استدانوها، وشراءً للانصار والأعوان، وتدعيماً لمراكزهم اذا ما زعزعتها الطوارق والحدثان، وخنقاً لصيحات الاستغاثة، وصرخات الألم، في صدور ضحايا الظلم، فلا تبلغ الى مسامع السلطان.

وان شاقك ان تعرف الطريقة التي بها كان يجمع الولاة تلك الاموال، فاليك منها هذا المثال:

« أراد محمود باشا والي اليمن (بعد الاحتلال العثماني)، ان يُعيَّن والياً على مصر، فذهب الى الآستانة بهدايا وافرة، واستدان فوق ذلك / ٢٠٠٠٠٠٠ / دينار رشا بها ارباب النفوذ هناك، حتى تمكّن من

تحقيق أمنيته . فلما استقرّ في ولاية مصر ، كان اول ما فعل ان قتل أحد ثرائها ، محمد بن عمر ، الذي كان قد قدم الى ملاقاته بهدية بلغت قيمتها / ٥٠٠،٠٠٠ / دينار .

فعل الباشا ذلك لا عقاباً للرجل بذنب اقترفه ، بل ليخلو له الجوّ ، فيستولي على أملاكه ، ويستصفي أمواله ، فيفي بها ديونه . وقد كرر هذه الجريمة الشنعاء مع كثيرين غيره ، حتى امتلأت خزائنه بمال الظلم والسحت . وبعد ان كان قد دخل مصر مفلساً مديوناً ، خرج منها وملء حقائبه اواني الذهب والفضة .

« وهذا الذي فعله في مصر ، كان قد فعل مثله في اليمن يوم ان كان والياً عليها »[1] .

هذا مثال صغير مما كان يجري ، حتى أواخر القرن التاسع عشر ، في مختلف الولايات العثمانية ، ولا سيما ما نأى منها عن كرسي السلطنة . فان كان هناك من يشك في صحته ، او يحمله على محمل الغلو والمبالغة ، فاليه ما كتب الدكتور الكس رسل ، في الطبعة الاولى من مؤلفه . والدكتور رسل ممن يعتقد قوله ، ويوثق بخبره ، وقد

---

(١) تاريخ سوريا الاقتصادي ، للأمير علي الحسني ، الصفحة ١٣٨ ، نقلاً عن الشيخ قطب الدين المكي في تاريخه (ببعض تصرف في التعبير) .

عاش في حلب في القسم الأول من القرن الثامن عشر ، فعاصر بعض الولاة الذين نتحدث عنهم ، وعاشرهم . قال ما ملخصه :

« ان الباشا الذي يشتري ولايته بالمزايدة ، فيدفع المبالغ الوافرة للحصول عليها ، والذي تضطره واجبات منصبه الى نفقات باهظة ، ليس في عوائد الولاية القانونية ما يفي بربعها ، لا بدّ له ان يسلب رعاياه ، ليعادل بين دخله وخرجه . وهو بالرغم من لجوئه احياناً الى القاضي لاحقاق حقه (المزعوم) ، فليس في الناس من تجوز عليه حيلته ، فيصدّق ان الحكم الصادر في مصلحته ، قد استوحى العدل والشرع ، بل كلهم موقن انه انما استوحى شرع « الحق للقوة »[1] وهو الحق الذي اليه وحده يستند الولاة في سلب ما في ايدي الناس ، واستصفاء ثرواتهم ، بل انتزاع حياتهم ، في بعض الاحيان » .

وبعد ، فلو لم يكن الجور والعسف هما القاعدة العامة للحكم في هذه البلاد ، لما كان شذوذ يوسف باشا ، والي حلب ، في اوائل القرن السابع عشر ، وخروجه عن سنن زملائه ، بأن عامل رعاياه بالرفق والعطف والانصاف ، مثاراً لاعجاب قناصل تلك الايام واكبارهم

---

(١) او بتعبير الدكتور رسل اللاتيني : « Sic volo, sic Jubeo » (هذا ما شئت وبه حكمت) .

فيسجلون تلك المأثرة في تقاريرهم، ويشيدون بذكر ذلك الوالي الصالح، منوّهين بما كان لسيرته الرشيدة من طيب الاثر في حياة العباد والبلاد [1].

هذا، ولا يغربنَّ عن ذهن القارىء الفطن، ان هذه المآسي التي حدَّثناه عن بعضها، انما كان مسرحها كبريات المدن، وقصبات الولايات، حيث المال الكثير يشبع النهم، والجاه العريض يكبح النزوات والاهواء، وحيث كان للوالي أعداء وحساد، يبثون حوله العيون والارصاد، للايقاع به، وانتزاع السلطة من بين يديه.

أما في القرى والدساكر، المنقطعة عن العمران، القابعة في زوايا النسيان، البعيدة عن أعين الرقباء والشفماء، فحدث عن الظلم وضحاياه ولا حرج. وحسبنا النموذج الآتي، ففيه من البلاغة ما يغني عن الكثير من امثاله:

مرَّ السائح والعلاَّمة الفرنسي فولتي سنة ١٧٨٤ بأطراف طرابلس، قادماً اليها من لبنان، فرأى زراعة التوت فيها مهملة

---

(١) H. Lammens: La Syrie, Précis Historique, v. 2, P. 64
ولعل يوسف باشا هذا هو الذي ذكره الغزي في الجزء الثالث من تاريخه، الصفحة ٢٧٨، وقال عنه انه وليَ حلب من سنة ١٠٣٠ الى سنة ١٠٣٣ هـ. ولم يزد. (المعرّب)

مهجورة ، خلافاً لما لاحظه من ازدهارها في أودية لبنان ، فسأل احد القرويين عن السبب ، فأجابوه ببساطتهم المعهودة :

« هنا لا يزرع أحد شجرة ، لأن الباشا (والي طرابلس) اذا علم بذلك استدعى اليه الزارع طمعاً بماله ، فأمر بجلده ، طالباً منه دراهم، ظلماً وعدواناً . فان أجابه الى طلبه ، ضاعف ضربه ليحصل منه على اكثر مما أقرّ له به ، وان ابى ، ظلّ يضربه حتى يعترف له بكل ما يملك » [1] .

ولو اقتصر أمر هذه المظالم على الولاة وحدهم لهان ، ولكنّ للولاة اعواناً على الظلم ومساعدين . وعند القرويين من الغلات والخيرات ، ومن الجهل والذل والمسكنة ، ما يجعلهم طعمة الطامعين ، ومطية العتاة الظالمين .

فهناك الجنود الفرسان [2]، الموكل اليهم حفظ الامن، ومساعدة الجباة ، خارج المدن ، الذين ، كانوا كلما انقطعت عنهم جراياتهم ، يحولون نقمتهم الى القرى ، يُزاحمون فيها السكان على اللقمة والفراش،

---

(١) تاريخ سوريا الاقتصادي : صفحة ١٥٦

(٢) وكانوا يلقبونهم بالدليلر ، أي المجانين ، وفي لقبهم ما ينم عن أعمالهم .
(المعرّب)

بل ينقلبون ، في بعض الاحوال ، وحوشاً ضارية ، ينشرون الهول والفزع اينما حلوا ، وحيثما نزلوا ، سالبين مضيفيهم ثمار تعبهم و كدحهم ، فارضين عليهم كل ضريبة ما انزل الله بها من سلطان ، قاسرينهم على دفعها تحت وطأة العصيّ ، ووقع السياط [1] .

وهناك القبائل الرحل ، من اعراب وتركمان واكراد ، وقد اتخذوا من السلب وقطع الطرق مهنة ومعاشاً ، لا يفتأون ، كلما شاموا من عين ولاة الشأن غفلة ، ينقضّون على القرى المستأمنة ، فيعملون فيها يد النهب والتخريب ، ويستاقون ما تيسّر لهم من مواشٍ وقطعان .

فاذا تكررت الاعتداءات ، ورأى الباشا ، حفظاً لمركزه ومهابته ، ان يضع حداً بحملة عسكرية تأديبية يسوقها على القبائل المعتدية ، وقع معظم عبء الحملة على القرى التي شُنّت في سبيل حمايتها ، بحيث ان كثيراً ما تساءل اولئك القرويون أما كان الافضل لهم لو انهم تُركوا وشأنهم ، من ان يشتروا حمايتهم بمثل الثمن الباهظ الذي دفعوه ؟

---

(١) كل ما لم نشر الى مصدره فمنقول او مقتبس عن كتاب الدكتور رسل ، طبعته الثانية .

وهناك الاغوات، اصحاب القرى، او مستغلوها وملتزمو اعشارها، الذين، بحجة حماية الفلاح ومساعدته، لا ينفكّون يكبلونه بأغلال الديون، ليتسنى لهم ان يستعبدوه، ويستثمروا اتعابه في سبيل مصلحتهم ومآربهم.

جميع هذه الأسباب التي ذكرنا، وغيرها مما قد نذكره فيما بعد، تضافرت على اشقاء الفلاح وافقاره، وحمله على هجر قراه، والاعتصام بالجبال والمدن، ينشد فيها الامن والسلامة والهناء.

والى هذه الأسباب يعزو الدكتور رسل حالة البؤس التي صار اليها العدد العديد من القرى القائمة في اطراف حلب: قرى كانت، حتى مطلع القرن الثامن عشر، عامرة مزدهرة، فتحولت في أقل من ثلاثة ارباع القرن، الى اطلال ينعق في ساحها بوم الخراب، كادلب [1] ومنطقتها، او الى قرى سائرة في طريق الفناء والزوال، كتادف ونيرب وما جاورهما.

ويقول الأب لامانس، نقلاً عن (فواني)، انه كان في ولاية حلب، يوم دخلها الأتراك العثمانيون، سنة ١٥١٦، / ٣٢٠٠ / قرية

---

(١) وهي التي يدعوها الدكتور رسل: «قرية الزيتون» (The Olive Tree Village).

مقيدة في سجلات الولاية كقرى عامرة، قادرة على دفع الضرائب والمكوس، فلم يبقَ منها يوم زارها ذلك السائح، سنة ١٧٨٤، (اي بعد ٢٦٨ سنة من الحكم العثماني) سوى /٤٠٠/ قرية فقط لاغير ![1]

ومن مساوىء ذلك العهد سرعة تبديل الولاة، بحيث لا يكاد احدهم يستقرّ في ولايته حتى يعزل عنها، او ينقل الى غيرها. وكانت العادة، على ما يقول الدكتور رسل، ان لا يُعيَّن الوالي لأكثر من اثني عشر شهراً (ولو ان هناك ولاة احتفظوا بولايتهم عشرات السنين، وغيرهم عادوا غير مرة الى الولاية التي كانوا قد فصلوا عنها).

وذكر الاب لامانس في تاريخه انه قد تعاقب على ولاية الشام، منذ تأسيسها سنة ١٥١٧ حتى سنة ١٦٩٧ اي في مدى ١٨١ سنة، ١٣٣ والياً، منهم ٣٣ فقط احتفظوا بولايتهم سنتين متواليتين.

وهذا التدبير، وان انطوى على كثير من الحكمة وبعد النظر، اذ كان يقضي على مطامع الولاة، فلا يدع لهم الوقت الكافي لمؤالفة السكان، فتدبير المؤامرات، فرفع لواء العصيان والمناداة بالاستقلال في ولاياتهم (على نحو ما حدث مراراً في سورية، ومصر، وغيرهما

---

(١) H. Lammens : La Syrie, Précis Historique, vol. 2, P. 118.

من الولايات النائية)، قلنا ان هذا التدبير ، على ما فيه من حكمة وبعد نظر ، قد عاد على البلاد بأوخم العواقب ، اذ ترك الولاة في قلق دائم على مصيرهم ، وصرفهم عن الاهتمام بشؤون الولاية المسلَّمة مقدراتها الى عنايتهم ، الى الاهتمام بشؤونهم الخاصة ، والسعي لاقتطاف ثمار الخير الحاضر العارض ، واملاء جيوبهم وخزائنهم بأية وسيلة كانت ، استعداداً للغد المجهول ، لا يبالون في الوصول الى غايتهم ، سعدت البلاد أم شقيت ، أثرت ام اتربت ، عمرت ام خربت .

وفي الرواية التالية المنقولة عن السائح الفرنسي فولني المتقدم ذكره ، خير شاهد على ذلك . قال : « أراد تجار حلب اعمار ميناء اللاذقية ، لانها اقرب ثغر الى بلدتهم ، وتعهدوا لوالي طرابلس ، الذي كانت تعود اللاذقية الى ادارته ، ان يعفيهم من المكوس مدة عشر سنين ، مقابل تعهدهم بالقيام بجمع نفقات المشروع . فأجابهم الباشا : « ماذا يهمني ما تصير اليه اللاذقية بعد عشر سنين . فقد كنت البارحة في مرعش، وقد أكون غداً في جدة، فلماذا أحرم نفسي فائدة حاضرة، طمعاً في فائدة مستقبلة لست واثقاً من الحصول عليها »[1] .

غير ان الحال قد تتبدل غير الحال ، اذا ما تمكن الوالي ، بحنكته

---

(١) تاريخ سوريا الاقتصادي : صفحة ١٤٨

ودهائه ، ان يطيل أمد ولايته ، وان يضمن لنفسه الاحتفاظ بها بضع سنوات متواليات . فانه لا يلبث ان يغيّر سيرته في محكوميه ، فيأخذ في الاهتمام بشؤونهم ، والسعي لتفهم حاجاتهم ، ودفع الضيم عنهم ، وانماء موارد ثروتهم ، ضارباً بيد من حديد على كل من تسوّل له نفسه التعرض لاموالهم بالسلب والنهب والاتلاف ، محاولاً ان ينال منهم ، بالسياسة واللطف ، اضعاف ما كان ينال بالشدة والعنف .

ولكي يسلس له قياد الرعية ، يعمد الى اقصاء صغار الطغاة والمتزعمين ، بحيث يصبح ، على نوع ما ، الحاكم المطلق في الولاية كلها ، المستقل في ادارة شؤونها كافة . وقد تضطره هذه الحال الى الاستبداد والتجبّر أحياناً ، ولكنه يعرف كيف يلطّف من وقع استبداده في نفوس محكوميه بما يبديه نحوهم ، بين الفينة والفينة ، من ضروب التساهل والتسامح ، وما يبرزه من آيات العدل والانصاف . بل انه لا يحجم عن مشاركتهم في التزام اراضيهم وزراعتها ، ثم مشاطرتهم ما ينجم عن تلك الشركة من ربح وخسران ، باذلاً قصاراه في اكتساب رضاهم ، لعلمه أن في هذا الرضى خير ضمان له للثبات في منصبه ، وأمضى سلاح يدفع به كيد الاعداء ، ويفسد خطط المنافسين والحساد ، ويحبط المؤامرات التي تحاك ضده في اروقة

الباب العالي .

غير أن والياً كهذا لا بدَّ أن يثير كامن الحسد في صدور رجال المابين ، ولا سيما اذا كان من ذوي الحزم والاقدام ، وممن يعرفون من أين تؤكل الكتف . وإن هو لم يثر فيهم الحسد ، أثار ، ولا مراء ، الطمع والجشع ، لما يفترض عنده من فرط الغنى ، فيُسَجّل اسمه في قائمة ضحايا الغدر في الغد القريب ..

وقد يُسمح له أن ينعم ، ردحاً من الزمن ، بالسلامة والهناء ، إذا شاء ان يشتريهما بما جمعه من الاصفر الرنان .. حتى اذا ازفت ساعة القضاء ، راحوا يبذلون له الوعود المعسولة ، والمواثيق المغرية ، ليحملوه على ترك ولايته والانتقال الى الولاية النائية التي عيّنوه لها .. وما ان يبلغها حتى يتم تمثيل المأساة ، ويسقط الرجل ، في ساعة غفلة ، ضحية اللؤم والغدر والطمع ، كما جرى لاسعد باشا الدمشقي ، من آل العظم ، على ما رواه الدكتور رسل تفصيلاً في احدى حواشي كتابه . وقد احببنا ان ننقل تلك الحادثة المفجعة بحذافيرها للحقيقة والتاريخ ، ولمكانة راويها من الصدق .

حكاية مقتل اسعد باشا العظم

قال الدكتور بات رسل في الملحق الرابع والخمسين من المجلد

الاول من مؤلفه :

« ينتمي أسعد باشا (العظم) الى اسرة حمصية او حموية [1] ، واسعة الغنى ، عظيمة الجاه . وكان له اخوان ، كلاهما من رجال الدولة: أحدهما برتبة باشا من الصنف الاول (وزير باشا) ، والآخر برتبة باشا من الصنف الثاني (باشا ذي طُوغين) [2] . وذلك أمر نادر الوقوع في الاسرة الواحدة .

« وتقلّد أسعد ولاية الشام عدة سنوات متتاليات ، وتولّى أمارة الحج ، وقاد قافلته عشرات المرات على التعاقب ، اضافةً الى ولايته . وتمكنت بينه وبين اعراب البادية عرى الودّ والصداقة ، بفضل أريحيته و كياسته ، كما اجتذبت اليه سياسته الحكيمة ، وادارته

---

(١) جاء في « كتاب ولاة دمشق » للأستاذ صلاح الدين المنجّد ، الصفحة ٧٧ ، ان اسماعيل باشا العظم ، والد أسعد هذا ، كان فلاحاً من المعرّة وخازن القوت على المسلمين .

(٢) الطُوغ (بضم الطاء) لفظة تركية معناها (علَم) ، وقد جاءت منتهية بالخاء (طوخ) في « نهر الذهب » للغزي ، الجزء الاول ، الصفحة ٣١٥ ، وفسّرها ، نقلاً عن دارفيو ، انها ذنب حصان معقود على صَعدة (قناة مستقيمة) ، يملوها أكرة من نحاس مذهّب ، كان يحمل منه امام السلطان سبعة ، وامام الصدر الاعظم اربعة ، وامام الوزير الذي يكون من الصنف الاول ثلاثة ، وامام الوزراء الذين هم دون الصنف الاول اثنان ، وامام الرؤساء والموظفين ذوي الشأن واحد .

الحليمة السمحاء ، قلوب رعاياه ، فصافوه الود والولاء .

« وفي سنة ١٧٥٧ صدر الامر بنقله الى حلب ، وبنقل راغب باشا والي حلب الى الشام [١] .

« وكان من عادة الدولة يومئذٍ ان تعهد بأمارة الحج الى من تسند اليه ولاية الشام . فأحب راغب باشا ان يحتاط لامره ، فكتب الى اسعد يعرض عليه ان يبيعه ما لديه من ابل وخيام وسواها من لوازم الحج ، التي لم يعد يحتاج اليها ، وقد صار من مصلحته ان يتخلص منها . ولكن أسعد أبى ان يلبي طلبه ، وافرغ جوابه في قالب جاف ، لا يليق بمن وُجّه اليه ، ولعله استعظم الصفقة ، فشكّ في قدرة زميله على دفع ثمنها ، او ان قلة تمرسه بأساليب السياسة حملته على الاستخفاف بقدر مراسله ، واخفت عن بصيرته ما قد ينجم عن عمله من سوء المغبة .

« فلما قرأ راغب الجواب هاج هائجه ، وثار الدم في وجهه ، وقد آلمه خاصة الاسلوب الذي سُبك فيه الرفض ، اذ رأى فيه امتهاناً لشأنه ، وانتقاصاً لقدره . ولكنه عرف بدهائه ان يتمالك سريعاً ، وان

---

(١) هو راغب باشا العالم الكبير ، صاحب سفينة الراغب (نهر الذهب ، الجزء الثالث ، الصفحة ٣٠٠) .

يتظاهر بعدم الاكتراث لما جرى . واكتفى بان قال ، رافعاً صوته : فلاح ابن فلاح ! وهي عبارة جرى لي [1] ان سمعته يرددها عندما كان يذكر اسم اسعد امامه عرضاً . (ولعل فيها تلميحاً الى اصل اسعد ، والى جهله بآداب المراسلة كذلك) .

« وكان في الغلاف الحريري الذي حمل الى راغب باشا مرسوم تعيينه لولاية الشام، رقعة صغيرة دسَّها فيه ناظر الجواري « قزلر اغاسي» وبها ينبئه ان هناك بشرى سوف تُزفّ اليه عما قريب . وظل امر تلك الرقعة سراً مكنوناً في صدر راغب ، لم يبح به لأحد . حتى اذا كان جماعة السراي منهمكين في اعداد العدة للسفر الى الشام، اذ وردت الانباء ان راغب قد رُفع الى سدَّة الصدارة العظمى . وما هي إلا ايام قلائل حتى وصل سلاحدار السلطان يحمل رقيم التعيين . وعلى الاثر انتقل راغب الى الآستانة صحبة الرسول ، وحاشية صغيرة .

« وجاء أسعد بعد ذلك الى حلب ، وتسلَّم منصبه فيها . وكانت حلب تعاني نقصاً في الاقوات ، وغلاء في المعاش ، فأمر بأن تنقل الحنطة من اهرائه وتوزع على الخانات . فانخفضت بذلك الاسعار ، وانفرجت الازمة ، فكان لتلك الباكورة الطيّبة اثرها الفعّال في

---

(١٠) القول لبات رسل

قلوب الأهلين . ومن ذلك اليوم اصبح أسعد حبيب الشعب الحلبي ، ومعقد آماله .

« وخلف أسعد على ولاية الشام ، وعلى امارة الحج ، والٍ تركي شاب ، حديث العهد بالباشاوية ، وبالبلاد التي عُيّن لادارتها .

« وحدث في تلك السنة (١٧٥٧) ان هاجم البدو قافلة الحج ، في عودتها من مكة ، ونهبوها ، واستولوا على المحمل الشريف الذي كان يرافقها .

« وما لبث الخبر ان شاع في جميع ارجاء السلطنة ، وتلقاه الناس بالجزع والفزع . وكان وقعه على رجال الآستانة أشدّ وآلم. أما حلب ، فقد كان الرأي الغالب فيها ان ما حدث لم يكن إلاّ رد فعل للتبديل الذي جرى ، فقد غاظ أهل البادية ان يخلف حبيبهم أسعد رجلٌ غريب ، ليس فيهم من يعرفه ، واحفظهم خاصة ان يهمل ذلك الباشا الشاب شأنهم ، فلا يتخذ من الوسائل ما يكسبه ودهم ، ويقيه بالتالي شرهم .

« أما أسعد باشا ، فيقال انه تلقى النبأ بفتور ، كما لو ان ما حدث كان أمراً طبيعياً متوقعاً ، فلم يبدِ لسماعه ما يستحقه من الدهش والتأثر . فقد رُبي الرجل وعاش في بلاد نائية ، بعيداً عن

كرسي السلطنة ، ومواطن الرياء والتصنع ، فنشأ حرّ التفكير ، صريح التعبير ، ولكنه قليل الخبرة في فنون السياسة ، وأساليب القصور . فكان يتحدث عن نهب القافلة دون تروٍ ، ويسترسل في الكلام عنه دون تحفظ، بحيث يخيّل الى سامعيه ان له ضلعاً فيما حدث، مقدماً بذلك الحجة الى الباب العالي بوجوب الاسراع في انزال الضربة التي كان مزمعاً ان ينزلها به .

«وما هي إلا بضعة أشهر حتى اذيع نبأ تعيين أسعدلو لاية اخرى. فهاج الرعاع لهذا الخبر وماجوا ، وتجمهروا ، وتدافعت جموعهم الى السراي ، صائحين ، صاخبين ، مهددين بأن يحولوا بسلاحهم دون براحه . حتى حملوا رجال الديوان (رجال الحكم) ، كما حملوا قناصل الدول ، على ان يبذل كل منهم ما له من نفوذ في الآستانة ، ليظل اسعدهم المحبوب على رأس ولايتهم .

«ونجحت الوساطات، وأثمرت الشفاعات، وجاءت البشائر بذلك الى حلب . فتلقاها الشعب بالاهازيج والزغاريد ، وقامت الزينات ومعالم الفرح في كل مكان ، بشكل لم تعرف له الشهباء مثيلاً منذ مئات السنين . حتى ان قناصل الدول رأوا من الحكمة ان يشاركوا الاهلين افراحهم ، فاشتركوا في زيناتهم .

« وفات الشعب المسكين ان تساهل الباب العالي له لم يكن إلا تخديراً للاعصاب الهائجة ، وتأجيلاً للامر الصادر ، اذ لم تكد تنقضي السنة ، حتى ورد المرسوم العالي بتعيين اسعد لولاية سيواس .

« وعلى الاثر غادر اسعد السراي وانتقل الى الميدان الاخضر استعداداً للسفر الى ولايته الجديدة . على انه ظل مخيماً هناك بضعة أسابيع ، لم ينقطع خلالها اصدقاؤه ومحبوه الكثر عن التردد اليه ليقنعوه بالعدول عن السفر . فقد لاح لهم بثاقب بصيرتهم ان وراء الاكمة ما وراءها ، وان هناك نفخاً قد نصب له في اقصائه عن موطن اهله وعشيرته ، وانه لواقع في حبائل ذلك الفخ لا محالة ان هو لم يعدّ العدة للنجاة منه . فاقترحوا عليه ، إما ان يبعث الى الآستانة بمبالغ ضخمة يستعطف بها ارباب النفوذ هناك ليعيدوه الى ولايته القديمة (الشام) ، او ان يزيد في عدد جنوده زيادة يصبح معها مرهوب الجانب ، فلا يجسر أحد على التحرش به ، ومحاولة نقله بالقوة . او ان يحتج على الاقل بالمرض والشيخوخة ، ويشتري ممن يعنيهم الامر السماح له باعتزال الحكم ، لينزوي في قراه واملاكه الخاصة ، ينفق فيها ما بقي له من العمر في أمن وسلام .

« ولكن كل تلك النصائح المخلصة ، والآراء السديدة ، ذهبت

صرخةً في واد ، ونفخة في رماد ، اذ اصطدمت بحرص اسعد وطمعه وتعلقه المفرط بالمال ، وعا رسخ في قرارة نفسه من الوهم في ان من قاد المحمل الشريف عشرات المرات لا يمكن ان يمس بسوء ، او يصاب بمكروه .

« على ان الحق ليقضي علينا ان ننصف الرجل ، فنصرّح انه بالرغم من حرصه وطمعه ، وبالرغم من انه قد جمع الاموال الطائلة عن طريق ولايته ، فقد غادر البلاد التي حكمها وهي ترتع في بحبوحة الخصب والاقبال ، وكانت سياسته في رعيته ، على الجملة ، سياسة حلم ورأفة وتسامح ، مما لم يكن للحلبيين عهد به في ولاتهم السابقين .

وبعد ان استنفد اسعد كلّ وسائل الاستمهال والتسويف ، غادر الشهباء الى مقرّ عمله الجديد .

ولكنه ما كاد يستقر فيه ردحاً من الزمن حتى دُعي الى الآستانة بحجة ان هناك اموراً تتعلق بالنكبة التي نزلت بقافلة مكة يريدون ان يستوضحوه اياها . وقد اكدوا له في كتاب الدعوة ان لا يخشى شراً ، اذ لا شكاية عليه .

وحمل الكتاب الى سيواس ساعيان من حرس السلطان الخاص

المعروفين بالبستانجيلر (جمع بستانجي اي بستاني)[1] . فلم يسع اسعد إلاّ تلبية الدعوة . وما هي إلا بضعة أيام قضاها في تنظيم اموره واعداد لوازم السفر ، حتى غادر سيواس صحبة الرسولين وحاشية صغيرة من خدامه .

وعمل الرسولان على ادخال الطمأنينة على قلب أسعد ، فكانا طوال الرحلة يبالغان في احترامه ، ويتسابقان الى خدمته وتوفير اسباب الراحة له . ولكنهما تمكنا بدهائهما من اقصاء معظم رجال حاشيته ، دون ان يثيرا في نفسه الخوف والقلق . حتى اذا بلغا قرية قريبة من بروسه عرضا على الباشا الشيخ ان ينزل فيستريح فيها ، ويستحم في حمامها . ولم يخامر أسعد المسكين شك في صدق نيّة مرافقيه فأجابهما

---

(١) هذا الحرس هو من مبتكرات السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ - ١٥٦٦ م) ، انشأه حداً لنفوذ الانكشارية واحترازاً من غدرهم ونقمتهم ، بعد ما رآه من تدخلهم في شؤون السلطنة ، وتحكمهم بابيه السلطان سليم ، اثر مساعدتهم له على خلع والده بيازيد وتبوئه عرش السلطنة مكانه . ولم يفت الانكشارية مغزى هذا الحدث الذي أحدثه سليمان ، فقابلوه بالثورة والعصيان، على عادتهم التي جروا عليها بعدئذٍ كلما عمد أحد السلاطين الى تعديل الاوضاع القائمة في البلاد ، او اصلاح نظام الحكم فيها .

راجع L. Collas : Histoire de l'Empire Ottoman

(المعرّب)

الى طلبهما . وعُني الرسولان أن يلجا معه الحمام . وفيما كان ذلك الرجل الصالح جالساً في الغرفة الداخلية ، عاري الجسم ، عاجزاً عن كل دفاع ومقاومة ، فجأه احد الرجلين وقمعه بهراوة على امّ رأسه . فوقع على الأرض فاقد الشعور ، واجهز الثاني عليه بأن اجتزّ رأسه ليحمله هدية الى من اوفده في طلبه .

وفيما كان البستانجيان في طريقهما الى سيواس ، كان قد خرج من الآستانة رسول ثالث من حجّاب السلطان (قبوجي) ووجهته دمشق ، ليستولي على مخلفات اسعد المسكين (على عادة السلاطين في ذلك العهد) . ولكن نبأ قدومه كان قد سبقه الى تلك المدينة . وهو وإن غنم المال الكثير ، فان ما وقع في يده على وفرته ، لم يكن ليشبع نهم الباب العالي ، لأن قسماً من مخلّفات اسعد كان قد طُمر في التراب ، وقسماً آخر تمكن من الهرب به مولىً حظيّ ، كان أسعد قد ائتمنه على جميع امواله عند مغادرته دمشق . وقد حمل هذا المولى ذلك القسم من مال سيده معه الى جبل لبنان ، حيث لجأ الى حمى أمير الدروز مستأمناً ، فأمّنه على حياته وامواله .

غير أن هذا المولى (الامين) ما لبث ان تصالح ، في العام التالي ، مع الباب العالي ، فرُفع الى رتبة الباشاوية . ثم مثّل دوراً

خطيراً حينما تسلَّم ولاية الشام أثناء احتلال المملوك المصري الثائر، علي بك، سوريا سنة ١٧٧٠.[١]

هكذا كانت الدولة العلية العثمانية تكافىء خدامها المخلصين، وولاتها الأحرار المصلحين. واسرة العظم أدَّت الى العثمانيين أجلَّ الخدم في ميادين السياسة والادارة والعمران. وهي الاسرة الوحيدة التي استطاع ابناؤها ان ينتزعوا من الاتراك مناصب الحكم، وكادوا

---

(١) كنا قد علَّقنا (في مجلة الضاد) على قصة هذا العبد الأمين، الذي خان الامانة بما يلي: «ترى من يكون هذا الداهية؟ لقد ضنَّ (رسل) «علينا باسمه، وحال دون الاهتداء اليه اضطراب النصوص التاريخية التي «لدينا، وتناقضها، وهو عيب يعرفه كل من حاول الكتابة في تاريخ العثمانيين «في هذه البلاد.»

ثم حدث لنا أن عثرنا عرَضاً على اسم هذا الرجل في جريدة «برق الشمال الحلبية» في مقال طويل نشرته في عددها الصادر في ٨ تموز سنة ١٩٥٨ بعنوان «سوريا في عهد الطاغية احمد باشا الجزار»، اجتزأنا منه بما يلي: «لما قامت الحرب في عام ١٧٦٨ بين الدولة العلية وروسيا، وجد الشيخ «طاهر العمر فرصةً للتخلّص من عثمان باشا الصادق الذي كان والياً على «دمشق. وعثمان باشا هذا اصله مولىً لاسعد باشا العظم. ولما اغتيل سيّده «في ظروف غامضة، تطوَّع هو بأن ارشد رجال الدولة الى خزائنه، وسلمهم «قائمة بأمواله، وجدت مطابقة للواقع، فلقّبوه «بالصادق»، واشتهر بهذا «الاسم. وعيَّنته الدولة من ثمَّ والياً على دمشق مكان سيّده، ومكث والياً «عليها احدى عشرة سنة.»

(الناقل)

السردار ومرافقاه بلباسهم الخاص

يستأثرون بها، في مختلف الولايات الشامية، معظم القرن الثامن عشر، ولا سيما دمشق، التي عُدوا من ابنائها لطول اقامتهم في ربوعها، وقد خلَّفوا فيها آثاراً تنطق الى اليوم بفضلهم وعظمتهم وسلامة ذوقهم. منها قصر العظم الشهير، متحف التقاليد الشعبية الحالي.

* * *

الانكشارية، ونبذة من تاريخهم

ولا نحسب اننا قد وفينا موضوع هذه المقدمة حقه، ورسمنا للقرّاء صورة صادقة لما كانت عليه حالة الولايات العثمانية قبل تنظيمها واصلاحها، إن لم نحدثهم عن الانكشارية، أو الينيجرية[1]، وهم الذين قيل انهم كانوا من الامة كالروح من الجسد، المرابطون في شتى الولايات، يمثلون فيها السلطة العسكرية، ولو لم يكن لاكثرهم من

(١) مفردها «ينيجيري»، اي العسكري الجديد، او الجيش الجديد (من يني = جديد، وجري = تحريف عسكري، بنحت حرفيه الاولين ثم لفظ الكاف على طريقة البدو) اما سبب تحويل هذه الكلمة الى «انكشاري»، فهي أنَّ الاتراك كانوا يكتبونها باصطلاحهم «يكيجري»: بكاف يلفظونها نوناً، فحرَّفتها العامة الى ينكيشيري ثم الى انكشاري. ولنا مثال على هذا التحريف في لفظة «انكيدنيا» (الثمر المعروف)، فانها محرَّفة عن «يكيدنيا» التي تلفظ «يني دنيا»: أي الدنيا الجديدة او العالم الجديد (مصدر هذا الثمر هو اليابان على الأرجح). (المعرِّب)

العسكرية الاّ الاسم ، لانصراف كل منهم الى تجارته او صناعته الخاصة ، لا يتقلد السلاح إلاّ اذا دعاه داعي الحرب . وكثيراً ما كانوا يتخلفون عنها لعذر يختلقونه ، او لثورة يحدثونها ، اذ كانوا في اواخر ايامهم ، كما وصفهم احد مؤرخيهم الاتراك « خيولاً جامحة تطفر حرةً طليقة في مراعي الفوضى ، ومنافخ تؤجج النيران تحت مراجل الثورات ، ومبارد تقرض قلائد الطاعة عن اعناق الرعيـة » . وهم هم الذين كانوا في فجر نشأتهم مثال النظام والطاعـة ، ونموذج التضحيـة والاستبسال : وهي الصفات التي أعلت اسمهم بين الامم ، ومكّنتهم في أقل من ثلاثة قرون ، ان ينتقلوا من سهول بروسة الى اسوار فيننّا ، حتى بات مجرد ذكر اسمهم يُرعد اوروبا بأسرها ، ويهزّ عروش ملوكها .

كيف بدأوا وكيف انتهوا

أنشأ هـذا الجيش ، على ما هو مشهور ، السلطان اورخان بن عثمان (١٣٢٦ — ١٣٦٠ م) وكانت جنود الدولة قبل ذلك التاريخ اشتاتاً ، قد اتخذوا الحرب اداة للكسب والارتزاق ، يخرجون لها بعيالهم ومالهم ، فاذا حاربوا اياماً قليلة ولم يفوزوا بمغنم ، تبدّدوا وعسر جمعهم . فحاول ان يغريهم على البقاء في خدمته ، برواتب يدفعها لهم في

اوقات معينة فلم يفلح ، وظلوا يحاربون متى شاؤوا وينصرفون عن الحرب متى شاؤوا . وعزّ عليه ، وهو سليل الغزاة وربيب الحروب ، أنْ لا يكون لديه جيش منظم يعتمد عليه في الملمات ، ويرجع اليه في المهمات ، ففتقت له الحيلة ان ينشىء هذا الجيش من ابناء اسراه المسيحيين ، ينتزعهم من والديهم وهم صغار ، على سبيل الغرامة او الجزية ، فيعلمهم عقائد الاسلام ، ثم يربيهم تربية عسكرية صارمة ، محرماً عليهم الزواج (على غرار الرهبان المحاربين في عصره) عازلاً اياهم في الثكنات ، لينصرفوا بكل قواهم ونشاطهم الى العمل الخطير الذي اعدّهم للقيام به .

وهكذا كان الجيش الانكشاري : وقد جاء منقطع النظير ، بزّ جميع جيوش محاربيه نظاماً ومهارة وشجاعة ، كما بزّهم ايضاً قسوة وشراسة وفظاظة . ولا عجب ان تقسو طباع جنوده ، وتتحجر قلوبهم وقد حرموا منذ نعومة اظفارهم حنان الامهات ، وعطف الآباء ، ومحبة الاخوة والاخوات ، ورُبّوا كما كان يربى اسلافهم السبارطيون ، بالضرب والجلد والتعذيب ، وبالمرهق المعسف من ضروب التمرين والتدريب . وهذه القسوة قد لازمتهم حتى آخر أيامهم ، بعد ان فارقهم كل ما كان يرافقها من صفات الخير والصلاح ، وكانت من

أعظم الاسباب التي أدّت الى نكبتهم ، فانقراض منظمتهم الى الابد ، على ما سيأتي بيانه .

وقد قسم الجيش الانكشاري بحسب نظامه العسكري الى ثلاثة اقسام : ارطه (وهي أصغرها) ، فاوضة ، فوجاق [1] . وكان عدد افراده يوم تأسيسه اثني عشر الفاً ، ثم ارتفع الى العشرين الفاً في حكم السلطان محمود الثاني (١٤٨١ — ١٤٨٤ م) ثم الى الاربعين الفاً زمن السلطان محمد الرابع (١٦٤٨ — ١٦٨٧) .

وكان مقامهم جميعاً ، في بادىء الأمر ، الآستانة ، فلما تكاثر عددهم نُقل قسم منهم الى الولايات ، ولكنهم ظلوا يرجعون في شؤونهم الى الاوض والوجاقات التي ينتسبون اليها في العاصمة . وكان لهم ، فضلاً عن قوادهم المحليين ، قائد عام يقيم في الآستانة يلقب بالآغا ، له السلطة المطلقة على جميع جنوده ، وحق تأديب كل من أذنب منهم ، بالضرب والحبس والاعدام ، دون معارض . فاذا ارتكب هذا الآغا ذنباً كبيراً قُطع رأسه ، او عُزل من منصبه ونفي الى احدى الولايات ،

---

(١) يمكننا ان نسمي الارطة باصطلاحنا اليوم : رهطاً (Compagnie) والاوضه : فوجاً (Bataillon) ، والوجاق : لواءً (Régiment) .
(المعرّب)

او عُيّن والياً عليها على سبيل النفي [1].

وكان الانكشاريون يعيشون من انعامات السلطان، ويُعتبرون أولاداً له تربطهم به رابطة الطعام او القدور التي كان يوزع بها الطعام عليهم. لذلك كانوا يحترمون تلك القدور ويجلّونها، وقد رسموا صورتها على ألويتهم واعلامهم. ومنها اشتقت ألقاب موظفيهم ورؤسائهم: كالشربجي باشي، والعشي باشي، وما ضارعهما. وبها استعانوا في اواخر ايامهم لاعلان سخطهم وتمرّدهم، بأن يضعوها مقلوبة امام ثكناتهم وابواب منازلهم.

ولقد حافظوا على نظامهم هذا، بنصّه غالباً، دون روحه، زهاء خمسمائة سنة، لم يرضوا ان يبدّلوا شيئاً مما ألفوه منه، حتى بعد ان بدا للجميع وهيه وضعفه.

ولما توالت الفتوحات على يدهم، واتسعت رقعة المملكة بما انضم اليها من البلاد التي غزوها بسيوفهم وبواريدهم، في اوربا وآسيا وافريقيا، داخلهم الكبر والخيلاء، ولعب في رؤوسهم شيطان الغرور، فتوهموا انهم وحدهم، دون سائر الجنود الذين كانوا يساعدونهم في

---

(١) معظم ما يأتي من الكلام ملخص بتصرف كثير عن «نهر الذهب في تاريخ حلب» للغزي، الجزء الثالث، الصفحة ٣٣٥ — ٣٥١.

البر والبحر ، المدافعون عن حوزة الملك ، والمحامون عن بيضة الاسلام ، ولولاهم لأصبح الملك والاسلام اثراً بعد عين . ثم تمادوا في طغيانهم حتى تجاسروا على اسقاط الوزراء وتنصيبهم وقتلهم ، بل على خلع السلاطين وحبسهم واعدامهم الحياة [1] . وكانوا كلما ازدادوا عتواً وظاماً ، نقصوا شجاعة وإقداماً ، واصبحوا عاراً على الراية العثمانية ، بتمردهم على قوادهم اثناء القتال ، ومجاهرتهم بالعصيان لاتفه سبب ، ورغبتهم الوحشية في سفك الدماء ، والسلب عند الانتصار ، حتى ضاق بهم السلاطين ذرعاً ، وعوّلوا على اصلاحهم مهما كلف الامر ، فان أبوا ، فابادتهم والتخلص منهم الى الابد .

وكان اول من فكّر في ذلك السلطان عثمان الثاني (١٦١٩ - ١٦٢٣) . وللوصول الى غايته أمر بجمع عساكر جديدة في آسيا ، وتعليمهم اصول الحرب الحديثة .

---

(١) ابتداءً من السلطان بيازيد الثاني (١٤٨١ - ١٥١٢) فهم الذين ساعدوا ابنه السلطان سليماً (١٥١٢ - ١٥٢٠) على خلعه ثم على قتله بتسميم طعامه .

ويذكر القراء ما كتبناه تعليقاً على البستانجية ، عند سردنا لمأساة اسعد باشا ، ان السلطان سليمان (ابن سليم هذا) كان قد أنشأ ذلك الحرس الخاص ليأمن شر الانكشارية ويحدّ من نفوذهم . (المعرّب)

فما ان درى الانكشارية بذلك حتى هاجوا وماجوا، وقلبوا مراجلهم امام ثكناتهم، وهاجموا قصر السلطان، وقتلوا كل من تصدّى لهم من الحراس والحجاب، وافرجوا عن السلطان مصطفى الذي كان سجيناً، وبايعوه، وقتلوا السلطان عثمان خنقاً. وطغوا وبغوا وذاقوا لذة السلطنة. وحرصوا على ابقائها في ايديهم. وتاريخهم مدة قرنين بعد ذلك ليس الاّ سلسلة متصلة الحلقات من العصيان والتمرد والعبث بالنفوس الذكية.

وكانوا منذ حكم السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) قد استحصلوا على الاذن بالتزوج والاقامة مع عيالهم. فاضطرتهم العيلة، ونقص رواتبهم، الى تعاطي التجارة، او مزاولة احدى الصناعات. فاهملوا سيوفهم وبواريدهم. ولم يبقَ لهم في الجنـدية الا الاسم، والمحافظة على قبض رواتبهم في أوقاتها[1]. ولم يكتفوا بذلك بل صاروا يأخذون مرتبات لعيالهم، وقيدوا اسماء اولادهم البالغين في سلك الجنود. وفرضوا على الاهلـين انواع الغرامات. ونالوا الكثير من الاعفاءات، بحيث لم يكونوا يؤدون شيئاً لخزينة

---

(١) يقول الدكتور رسل انهم لم يكونوا يقبضون راتباً وقت السلم. (المعرّب)

الحكومة . وصار ينخرط في سلكهم جماهير غفيرة من الناس . ومنهم من كان ينفق المبالغ الباهظة ليحرز شرف الانتساب الى فرقتهم . وقد دخل في تلك الزمرة الكثير من اليهود والنصارى ، طمعاً في السلب والغنائم اوقات العصيان .

وكانت القسطنطينية بجملتها في قبضة يدهم ، يفعلون فيها ما يشاؤون دون حساب ولا عقاب : يطوفون الاسواق والبيوت ، يسلبون الأموال ، ويهتكون اعراض المخدرات ، ويوسعون الناس ضرباً وشتماً . وكثيراً ما نشبت المعارك في شوارع الآستانة بينهم وبين الجنود السباهية اعدائهم الألداء [1] .

---

(١) السباهية جمع سباهي ، المركبة من « سباه » الفارسية بمعنى عسكر او جند ، وياء النسبة العربية ، وهم الذين كانوا يؤلفون جيش الفرسان ، في مقابل الينجرية الذين كانوا يؤلفون جيش المشاة . (المعرّب)

والسباهية فئتان : فئة مقامهم في العاصمة ، ومنهم حرس السلطان ، وهم المعنيون هنا ، على ما يظهر . وفئة مقامهم في الولايات ، في الاراضي التي أقطعوها بوصفهم غزاة ، على ان يستغلوا اعشارها وسائر ضرائبها ، ويُعفوا من جميع الغرامات والجبايات ، وهذا النوع من الاقطاع يدعى « تيماراً » اذا لم تتجاوز وارداته (٢٠,٠٠٠) اقجه .

اما اذا تجاوزته الى (١٠٠,٠٠٠) اقجه فيسمّى زعامةً ، ويسمّى صاحبه زعيماً ، وهو لقب يطلق عليه بفرمان سلطاني (وفي حلب أسر معروفة تحمل هذا اللقب) ووظيفة الزعيم ، وقت السلم ، المحافظة على الطرق ، وتحسين

وهم في كل يوم يذهبون جماعات جماعات لأخذ مرتباتهم من الطعام، ويعتدون على كل من يصادفونهم في طريقهم.

يسير في مقدّمتهم قائدهم وبيده مغرفة طولها ذراعان، ويتبعونه هم، وقد حملوا مراجلهم العظيمة على قضبان من حديد، وحولهم جماعة منهم بأيديهم سياط غليظة. فاذا حدث انّ احد المارّة لم يحد عن الطريق التي يسيرون عليها حالما ينادونه: «صاغ!! او صاقن!» (اي يمينك، او حذارِ!) عاجله القائد بضربة بتلك المغرفة العظيمة فجندله. ثم يبادر أصحاب السياط فيوسعونه ضرباً.

وقد يرى الحمّال منهم رجلاً يحمل رزمة، فيرغمه على ان يسلمه إياها، وأن يدفع له عن حملها اجرةً قد تساوي كل ما فيها.

واذا بنى أحدهم بيتاً يأتيه نجّار من الانكشارية فيطرد نجاريه

= الزراعة، ووقت الحرب، الالتحاق، هو وذووه واتباعه، بالامراء الذين يحرسون تخوم السلطنة.

اما الاجقه الوارد ذكرها هنا، وهي التي عرفت فيما بعد بالبارة، فقد كان لها في ذلك الزمن قيمة عالية، اذ كان يمكن أن يشترى بها، في سنة ١٧٣٧ (على ما يقول الامير علي الحسني، في ذيل الصفحة / ١٥٠ / من كتابه «تاريخ سوريا الاقتصادي»، كيلة شعير، او دجاجة مطبوخة، او ثلاثون الى اربعين بيضة. (الناقل)

لينوب هو عنهم، ثمّ يتمّ العمل متى شاء، وبالطريقة التي يختارها.

وكان الامر والنهي في المحاكم والدواوين بيد اولئك القوم العتاة، ينصّبون ويعزلون من شاؤوا متى شاؤوا.

ولم يكن تحكّمهم وتعسّفهم بمقتصرين على الآستانة وحدها، بل كان لكل ولاية نزلوها منهما نصيب.

اما حلب فقد كانوا مستولين فيها على معظم الحرف والصنائع، ولا سيما القصابة، اذ كان اكثرها في ايديهم. وكان الرجل لا يقدر أن يطبخ في بيته إلاّ نوع الطعام الذي يأمر به قصابه الانكشاري. ولربما أمره عدة ايام ان يطبخ نوعاً واحداً من الطعام، لأن اللحم الذي عنده لا يصلح لغير ذلك النوع. ولا يجرؤ الرجل ان يشتري حاجته من لحّام آخر خوفاً من نقمة لحامه وفتكه به.

واتفق أنّ رجلاً كان اسم لحّامه رحمون آغا، فكانت زوج الرجل اذا سألته: «ماذا نأكل اليوم؟» يجيبها: «الارادة لرحمون آغا». فذهبت هذه الكلمة عندنا مثلاً لمن كانت ارادته تبعاً لارادة من هو اقوى منه..

وجميع الفتن والثورات التي كانت تقوم في حلب كانوا هم، على الغالب، موقدي نارها ومؤججي اوارها. وكان زعماؤهم على

جانب عظيم من الثراء، وهم على جانب كبير من العتوّ والكبرياء والظلم. وكان ولاة حلب يعجزون عن اخضاعهم وردعهم، إلاّ من لجأ في قهرهم الى الحيلة والخداع، كما فعل جلال الدين باشا، اذ افنى العدد الكبير من طواغيهم [1].

وقد اشتهروا في حلب بعدائهم للسادة الاشراف، (ذوي العمائم الخضر)، ووقائعهم كثيرة، وكلها صحائف سود تنمّ عن لؤمهم وشراسة طباعهم. وقد ذكر الغزي في الصفحة ٣١٢ من الجزء الثالث من تاريخه الذي ننقل عنه، واقعة جرت في سنة ١٢١٢ هـ. (١٧٩٧م)، بينهم وبين السادات، كانت الغلبة فيها لهم. فالتجأ السادات الى جامع الاطروش وحاصروا فيه، فمنع الانكشارية وصول الماء والقوت اليهم، حتى اشرفوا على الهلاك، فاستأمنوا الانكشارية، فأمنوهم، وحلفوا لهم الأيمان المغلّظة على ذلك. فوثق السادات بهم، وفتحوا ابواب الجامع. فما كان من الانكشارية إلا ان هجموا عليهم، وفتكوا بهم بوحشية تترفع عنها الوحوش الضواري. ومن غريب ما رُوي، حتى يكاد لا يصدق لفظاعته، ان انكشارياً ظفر بأخيه السيد وهمّ

---

(١) ولّي حلب سنة ١٢٢٨ هـ = ١٨١٣ م (تاريخ الغزي : « نهر الذهب »، الجزء الثالث، الصفحة ٣١٨) وتمّ افناء هذا العدد الكبير من الانكشارية في وليمة دعاهم الوالي المذكور اليها.

بقتله ، فتوسّل اخوه اليه ان يغيثه بشربة ماء قبل الفتك به ، فما كان من اخيه (الشفيق) إلا ان بال في فمه ، ثم قتله !

الى هذا الدرك كانت قد وصلت حالة الجيش الانكشاري حينما همَّ السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ — ١٨٠٧) بالتخلص منه ، واستبداله بجنود نظامية جديدة ، محاولاً ان يحقق ما عجز عنه سلفه السلطان عثمان الثاني قبل مائة وسبعين سنة . ولكنه باء بالاخفاق ، لاصطدامه بمقاومة الانكشارية ، وتمردهم على كل جديد ، وثورتهم على كل نظام . وانتهى به الامر ، كما انتهى بسلفه ، الى الخلع ، ثم الى القتل خنقاً بيد اخيه السلطان مصطفى ، وهو الذي كان الانكشاريون قد اجلسوه على العرش مكانه . غير ان عمل مصطفى هذا لم يرق العصاة ، فاقتحموا قصره وخلعوه ، ووضعوه في السجن الذي كان فيه السلطان سليم ، ونادوا بابن عمه محمود الثاني (١٨٠٨ — ١٨٣٩) سلطاناً مكانه .

وكان السلطان محمود هذا يكثر من التردد على السلطان سليم ، وهو في السجن ، ويطّلع على ما كان يعدّه من خطط لاصلاح احوال السلطنة ، واعادتها الى سابق عزها ومجدها . وكان يدرك مثله ان لا سبيل الى ذلك الاصلاح إلاّ بالتخلص من الانكشارية ، والتحرر من إسارهم وتحكمهم . فلما تسلم زمام السلطنة اقسم أن يُهلكنّ تلك

القوة الغاشمة مهما كلفه الامر.

فبعد ان تسلّح بفتوى من شيخ الاسلام، اصدر امره الى الانكشارية بلزوم التقيّد بنظامهم القديم بكل صرامة وتدقيق. فيعتزل المتزوجون منهم زوجاتهم، ويهجرون حوانيتهم، ويقيمون في الثكنات، يتعلمون فيها فنون الحرب، ويخضعون لاصول طريقتهم.

فلما نشرت هذه الاوامر هاج الانكشارية، ورفعوا راية العصيان، وأضرموا النار في بيوت مجاورة لقصر الصدر الاعظم، مصطفى باشا بيرقدار، فاحترق الصدر الاعظم ومن معه. ثم ساروا قاصدين السرايا حيث كان السلطان محمود. فجمع السلطان رجال مدفعيته، وكل من كان لديه من العساكر الجديدة. وانتشب القتال بين الفريقين يومين كاملين، وباتت المدينة في خطر عظيم لكثرة النيران التي أضرمها الانكشارية فيها. وكانت عساكر السلطان قليلة ضعيفة، ورعاع المدينة قد اتحدوا مع الانكشارية بتحريض المتعصبين لهم. فرأى السلطان ان لا سبيل له للتخلص من اولئك العصاة إلاّ بقتل السلطان مصطفى السجين، ليبقى وحده من سلالة بني عثمان. ففعل، ثم خرج ووقف امام ذلك الجمهور الهائج. فلم يجسر احد ان يمدّ اليه يداً. ثم سلّم القواد الذين قاتلوا عنه الى العصاة، لينتقموا منهم،

واقسم انه لن يعيد ذلك النظام الجديد الممقوت . واجاب الانكشارية الى جميع ما طلبوا ، حتى انه قيَّد اسمه في احدى ارطهم !

على ان انقياد السلطان محمود لهم ذلك الانقياد المطلق ، والتسليم لهم في كل امر ، لم يكن إلاَّ خدعة لجأ اليها لكسب الوقت ، ثم للبطش بهم ، واستئصال شأفتهم الى الابد .

وانقضى على تلك الواقعة ثمانية عشر عاماً ، لم ينقطع السلطان خلالها عن التأهب لليوم العصيب الذي يضرب فيه ضربته القاضية . فلم يكن يدع وسيلة إلاَّ استخدمها ، ولا حيلة إلا لجأ اليها في الوصول الى غايته ، ومن أهمها تقوية مدفعيته ، وتدريب رجالها على طرائق حرب الافرنج ، واخضاعهم له الخضوع التام ، وإثارة روح البغض في نفوسهم للانكشارية ، الذين كانوا يزدرونهم ، ويستخفون بسلاحهم .

وجاءت ثورة الأروام سنة ١٨٢٠ ، فاغتنمها محمود فرصة لاصلاح جيشه ، وللتخلص من الانكشارية في الوقت نفسه ، فكان يرسل شجعانهم لقمع الثورات واخماد الفتن ، فلا يرجع منهم إلا النفر القليل ، حتى تحقق كل مكابر متعصّب لهم ، انهم لم يعودوا يصلحون للحرب والقتال ، وان بسالتهم لم تعد تتعدَّى حدود الآستانة . وأيقن الجميع

ان لا بدَّ من قلب نظامهم ، واستبدالهم بجيش جديـد ، على طراز جيوش الافرنج ، يوكل اليه أمر الدفاع عن السلطنة ، ويـدعى الانكشاريون الى الانضمام اليه .

وعقد السلطان مجلساً من كبار رجال الدولة للنظر في هـذا الامر ، واستصدر فتوى بجواز تزيي جنود المسلمين بزي اهل الكتاب، وبأن يقتبسوا اساليبهم في القتال فيستعملوها في محاربتهم ، ويقاتـلوهم بسلاحهم . واجمع رأي المجلس على ان يؤخذ مائة وخمسون رجلاً من من كل فرقة من فرق الانكشارية الاحدى والعشرين ، فيؤلف منهم جيش منظم على الطراز الاوروبي الحديث ، وأن يكون لهذا الجيش لباس خاص على نسق واحد ، وان يتعـلم افراده اصول الحرب على طريقة الافرنج ، دون ان يهملوا فرائض الاسلام . وبعد ان أفتى شيخ الاسلام بشرعية ذلك الاصلاح ، تمهَّد المجلس بتنفيذه . ثم عُرضت تلك الاحكام على قواد الانكشارية ، فقبلوها وختموها بخواتمهم . ولكن ما ان شرعت الحكومة في تنفيذها ، حتى استفاق الانكشارية من غفلتهم ، فصفَّوا المراجل على جاري عادتهم ، وجاهروا بالعصيان، وانضمَّ اليهم انصارهم والمتعصبون لهم من الرعاع . وكان ذلك اليوم

الخامس من حزيران سنة ١٨٢٥ م (الموافقة لسنة ١٢٤١ هـ .) [١] .

وسار موكب العصاة ، يتقدّمهم الدراويش يهيجونهم ويحرضونهم على مقاومة تلك البدع الافرنجية . وانطلقوا بهم الى منزل كبير الانكشارية يريدون قتله ، فنجا منهم بأعجوبة ، فنهبوا منزله ، ومنزل الصدر الاعظم كذلك .. وهكذا عادت المدينة فوقعت في قبضة يدهم .

وأما السلطان محمود ، فانه استحضر الى قصره جميع رجال مدفعيته ، وبعث رسولاً الى الانكشارية العصاة يأمرهم بالقاء السلاح والتسليم ، فرفضوا الامتثال ، وهزأوا بالرسول . فجمع السلطان العلماء واخبرهم بما كان ، فقالوا جميعاً ان الانكشارية هم أعداء الدين .

وفي صباح اليوم السادس عشر من حزيران ، اخرج السلطان علم النبي (صلعم) من الخزينة ، وسار بجميع جنوده الى ساحة آت ميدان . وبعد ان صلى في جامع السلطان احمد ، نشر هناك العلم

---

(١) وعلى رواية السيد كولاس (L. Collas) ، في كتابه « تاريخ السلطنة العثمانية Histoire de l'Empire Ottoman » الذي أشرنا اليه سابقاً ، والذي كان دليلنا في الكثير مما كتبنا عن الانكشارية ، ان هذه الحادثة وقعت ، او انتهت في الثامن والعشرين من تموز سنة ١٨٢٦ .

(المعرّب)

الشريف ، فأخذت الجماهير تتقاطر اليه ، ثم جعلت الجيوش تتقدم نحو الانكشارية وتدفعهم الى الوراء ، حتى اوصلوهم الى تل مشرف على معسكرهم ، بالقرب من جامع السلطان محمود . ثم سار جماعة من المدفعيين نحو ساحة آت ميدان ، ونصبوا المدافع على كل مرتفع مشرف عليها ، وفي قارعة كل طريق مؤدٍّ اليها .

وخرج الانكشاريون من ثكناتهم يقصدون عساكر السلطان. فأرسل السلطان اليهم رسولاً يأمرهم بالتسليم ، فقتلوا الرسول . فما كان من المدفعية الاّ ان صوّبت اليهم نيرانها ، وأخذت تقذف كراتها وقنابلها على ساحة آت ميدان ، والثكنة ، مركز الانكشارية .

والتحم الجيشان بعضهما ببعض ، فكانت موقعة هائلة . كتب الفوز فيها لعساكر السلطان ، فقتلوا من الانكشارية عدداً كبيراً قدّر بأربعة آلاف رجل ، وارتدّ من سلم منهم هارباً الى ثكنته ، فتحوّلت اليهم المدافع ، وأخذت تمطرهم نيرانها دون انقطاع ، حتى أصبحت الثكنة كلها شعلة نار . فصرخ الانكشارية من داخلها طالبين العفو والرحمة ، فلم يُلتفت الى صراخهم : ذلك ان الوفاً من الشيوخ والعجائز والعذارى طالما كانوا يصرخون اليهم في ايام سطوتهم

طالبين الرحمة ، فلا يجدون من يرحمهم ، ولا من يلتفت الى صراخهم !

ولم تزل المدافع تعجّ ، والبواريد تقذف الرصاص دون انقطاع ، حتى سقطت حيطان الثكنة على من سلم فيها من سلاح الجند ، فهلكوا عن آخرهم ، وقد قُدّروا بخمسة وعشرين الفاً ، لم ينجُ منهم أحد .

وفي اليوم التالي اصدر السلطان فرماناً ابطل به زمرة الانكشارية ، وملابسها ، ومصطلحاتها ، وثكناتها ، حتى اسمها من المملكة العثمانية كلها . وفي رواية انه امر أن تغرّق نساؤها واطفالها في البوسفور .

فاستولى الذعر والهلع على جميع الانكشارية ، وهربوا مشتتين تحت كل كوكب ، وراحت الحكومة تجدّ في طلبهم ، وتتقصّى آثارهم ، وتلقي القبض على كل من وجدته منهم ، فتعاقبه قتلاً بحد السيف ، او خنقاً ، او حبساً ، او نفياً ، بحسب احواله وذنوبه .

وهكذا انتهت حياة ذلك الجيش العظيم ، الذي ساهم في انشاء الدولة العثمانية ، وظلّ ردحاً من الزمن موضوع عزّها ، وعنوان منعتها وفخارها ... ولكن على نفسها جنت براقش ، ولا ظالم إلاّ ويبلى بأظلم ! ...

★ ★ ★

بهذا ننهي القسم الاول من الذيل الثاني ، لنعود الى الدكتور رسل فيحدثنا عن « ولاية حلب في القرن الثامن عشر » ، موضوع القسم الثاني من ذلك الذيل .

القسم الثاني من الذيل الثاني

— في ولاية حلب في القرن الثامن عشر —

— مواضيع البحث —

الباشا او الوالي — حدود الولاية — معاش الوالي — تنكّر الولاة وعسّهم — اذا مات الوالي وهو على رأس عمله — القاضي — المفتي — النقيب — المحصّل — السردار — الديوان (مجلس ادارة الولاية) الافندية والاغوات — حياة القرى — التجّار والصنّاع — العقوبات —

الباشا او الوالي

يغلب في باشاوات حلب ان يكونوا من كبار الوزراء ذوي الثلاثة الاطواغ [1] فيطلق على احدهم لقب « وزير باشا » ، ومع ذلك فقد يحكمها أحياناً باشا ذو طوغين فقط . اما مدة حكم هذا الباشا فمنوطة بارادة من عيّنه ، ولكن قلما يسمح له ان يظل في ولايته اكثر من اثني عشر شهراً على التوالي . بيد أن هناك ولاة حكموا حلب عدة سنوات دون انقطاع ، وغيرهم عادوا مراراً الى مزاولة الحكم فيها بعد انفصالهم عنها .

(١) راجع الذيل الثاني الصفحة ١٣٣

الوالي والسردار (رئيس الانكشارية) والقاضي

وقد ارتدوا الفراء الثمين وتربعوا على الارائك الفاخرة في قاعة من قاعات حلب القديمة الشهيرة

حدود الولاية وسعتها

تُعتبر ولاية حلب (او باشاوية حلب)، بحسب تخطيطها الأصلي، واسعة الارجاء، مترامية الأطراف، فهي تمتدّ غرباً بشرق من خليج الاسكندرونة حتى ضفاف الفرات، وشمالاً بجنوب اربعين ميلاً من شمال حلب حتى خمسين ميلاً الى جنوبها الشرقي. ولكنها في الواقع قد تقلّصت رقعتها كثيراً عما كانت عليه من قبل. فكلّس، وقد كانت من متعلقاتها، قد انسلخت عنها، واضحت ولاية قائمة برأسها، بعد أن استفحل شرّ الأكراد النازلين في جبالها، وكثر تعرّضهم للقوافل بالسلب والنهب. وللسبب عينه انفصلت عنها بيلان ايضاً منذ سنة ١٧٥٢ واضحت، مع قره موت والاسكندرونة وبياس والجبال المحيطة بها، حكومة مستقلة يديرها وجيه من ابناء بيلان، قد رُفع لذلك الى مقام الباشاوية ذات الطُوغين.

وهكذا اصبحت حدود الولاية الحقيقية اليوم (سنة ١٧٦٩) كما يلي:

شمالاً: قرية بايلق الواقعة على طريق عنتاب.

شرقاً: الصحراء، بحيث ان «الباب» القائمة منها على مسافة

عشر ساعات شرقاً فشمالاً بشرق، وحقله ؟ (Hagla) الواقعة على مثل تلك المسافة جنوباً، فجنوباً بشرق، تؤلفان آخر قريتين آهلتين في هذه المنطقة.

اما في الجنوب: فتحدّها الصحراء الكبيرة. واخصب بقاع الولاية واكثرها عمراناً وسكاناً واقعة بين تخوم هذه الصحراء والغرب. وتعتبر سرمين آخر مدينة آهلة في جنوب الولاية.

اما في الغرب: فتعتبر انطاكية وملحقاتها آخر الحدود، وهي الحدود التي كانت، الى بضع سنوات خلت، تمتدّ حتى البحر، اذ كانت تنتهي بالاسكندرونة وبياس، اللتين الحقتا بحكومة بيلان، كما تقدم القول.

ومن مناطق الولاية التي استقلّت آخراً الشُغُر (جسر الشُغُر)، ويرئس حكومتها آغا من ابنائها، تشمل سلطته ادلب ايضاً، يعينه الباب العالي ولا يخضع لوالٍ ما.

ويمكننا ان نعتبر معظم المناطق الجبلية مستقلة، لأن سكانها قلما يخضعون لغير رؤسائهم وزعمائهم، ويكادون لا يعرفون لغيرهم سلطة عليهم.

ويقال إنّ نصف القرى التي كانت فيما مضى مسجلة في دفاتر

الولاية ، كقرىً عامرة ، قد أصبحت غامرة مقفار .

والريف ، في معظمه ، إما صحراء خالية من السكان ، او بقاع ينزلها ، في فصول معيَّنة من السنة ، بعض القبائل الرحَّل ، من تركمان ورشوان وبغداليين قادمين من الشمال ، او بدو وعَجَر (جنكنا) من الشرق والجنوب . وهذه القبائل غير المستقرَّة لا يمكن ان تُحسب ، بحصر المعنى ، في عداد السكان الحقيقيين ، على الرغم مما تدفعه من ضريبة سنوية لصندوق الولاية .

معاش الباشا

قلنا في المقدمة ان الولاة لم يكن لهم رواتب معينة يتناولونها في اوقات محددة ، بل كانوا يعيشون عالةً على الولاية التي يحكمونها . ويقول (رسل) نقلاً عن (دارفيو) انَّ ما كان يتناوله والي حلب من عوائد ولايته ، بالطرق القانونية المشروعة ، ثمانون الف ريال (٨٠٣٠٠ ليرة انكليزية بتقدير « رسل » ، وان العارفين بدخائل الامور يذهبون الى أنَّ هذا المبلغ يكاد لا يفي بثلثي نفقات الباشا السنوية ، اذ عليه ان ينفق منه نحواً من ثلاثين الف ريال على جيشه المؤلَّف من اربعمائة الى خمسمائة رجل ، وان يبعث بقسم كبير آخر الى الآستانة وفاءً لثمن ولايته ، واكتساباً لودّ رجال المابين كيما

يعينوه لولاية اخرى اذا ما انتهى اجل ولايته . لذلك كان يعمد ، سداً للعجز بين دخله وخرجه ، الى اغتصاب اموال رعاياه بطرق تعسّفية جائرة ، عرفت يومئذٍ بالعوانة [1] ، ويقول (دارفيو) انه كان يجتمع لدى الباشا من اموال السحت هـذه ، وما يضاف اليها من الهـدايا والهبات المختلفة ، مبالغ طائلة يرتفع بها دخله السنوي الى مائتي الف ريال (وهو ما قدّره (رسل) بـ / ٢١٠٠٠ / ليرة انكليزية).

والعوانة ، وان ظالمة وغير دستورية ، لها في الحاجة والعادة ما يشفع فيها .

اما العوانات الكبـيرة فيتولّى امرهـا الباشا بنفسه . واما

---

(١) العوانة ، أو العوانية ، على ما يسمّيها (رسل) ، لفظة ايطاليـة (Avania) يراد بها ايذاء من لا يستحقّ الاذيّة . وهي تطلق على كل مال يُغتصب ظلماً وعدواناً عن طريق الوشايات والتهم الباطلة .

والعامّة في حلب لا يزالون يستعملون هذه اللفظة للوشاية بمهربي الدخان او الافيون ، او الحشيش ، او السلاح ، او ما شاكلهـا ، فيقولون في ذلك : « راحت على فلان عوانه » اي وشيَ به الى السلطـات المختصّة قصد ضبط أمواله المهرّبة وتغريمه ، وقد اشتقوا منها فعلاً ونعتـــاً ، فقالوا في الفعل : « تعاون فلان على فلان » ، وفي النعت « عواني » . ومن الجـدير بالذكر ان هذا النعت كان ، الى عهد غير بعيد ، لقب اسرة حلبية معروفة ، اشتهرت به ، حتى كادت لا تعرف بغيره .

(المعرّب)

الصغيرة، فيكل تدبيرها الى التفنكجي باشي ، رئيس جند الباشا المشاة. وللتفنكجي باشي هذا في عمله مساعدون ، منتشرون في جميع أرجاء المدينة ، يتجسَّسون الاخبار ، ويستطلعون الأسرار ، وهم فزّاعة السكان جميعاً ، ولا سيما المسيحيون واليهود منهم ؟ فكل جرم وان صغر ، وكل ذنب وان حقر ، يعرّض فاعله للعوانة ، وابتزاز الاموال. وقد يسوقونه الى القاضي ، ستراً لاغراضهم السافلة برداء من الشرع، وإن سخيفاً ، يشفّ عما يبطن من حيل لانتزاع الحكم من القاضي بتجريم الرجل ثم تغريمه الغرامات الفادحات ، وربما بلغ بهم البغي والطغيان الى سلبه كل ما ملكت يداه ، بل سلب حياته في بعض الاحيان [1] .

---

(١) هذا ما يقوله الدكتور آلكس ، غير ان الدكتور باترك يرى غير رأي أخيه ، فيذهب الى ان الباشا ، على ما يتمتع به من نفوذ عظيم ، وسلطة واسعة ، ليس بالحاكم المطلق فيستبيح ، بمجرد إرادته ، اموال الناس وارواحهم، وما الحوادث التي لمّح اليها اخوه إلاّ حوادث افرادية نادرة الوقوع .

اما عن استصفاء الثروات فيقول : ان للوالي اعداء وحساداً يرقبون اعماله وينقلونها الى اولي الشأن في الآستانة ، حتى اذا انتهى اجل ولايته ، وجاء يوم الحساب ، فقد يتقاضونه هناك اكثر مما قبض ، ويسلبونه اضعاف ما سلب .

واما عن الاعدام ، فيرى ان الوالي ليس حرّاً ، في الأحوال العادية ،

تنكّر الولاة وعسسهم

اعتاد بعض الولاة أن يمشوا في شوارع المدينة متنكّرين، يرافقهم التفنكجي باشي، وبضعة جنود يسيرون على بُعد خطوات منهم. وكل من يعثرون عليه في طوفهم متلبساً بجريمة ما يسوقونه الى السجن، او يضربونه بالعصيّ في مكان جريمته. وربما قادوا معهم في طوفهم احد كبار المجرمين المحكوم عليه بالموت: يخرجونه من الحبس سراً، ويوهمون الناس انه شقيّ شهير كانوا يطلبونه، وقد عثروا عليه اتفاقاً، ثم لا يلبثون ان يضربوا عنقه بحدّ السيف، دون محاكمة ما، على مرأى من الجمع الذي يكون قد تألب حولهم.

ولا تسل عن تأثير هذه الجولات والقصاصات الفورية في نفوس الاهلين، فانك لترى الرعاع الذين ألفوا العربدة والخصام، واعتادوا الصخب والشغب، قد تولاهم الهلع والفزع، فقبعوا في

= ان يُعدم الناس الحياة، دون ان يستند في ذلك إما الى حكم يصدره القاضي، او على الاقل، الى فتوى، في شرعية القصاص، يخطّها المفتي بيده. ثم لا بدّ لذلك الحكم الصادر ان يقترن برضى السلطان (وهو ما كان يُعرف بالارادة السنية) ليستطيع الوالي تنفيذه، ولا سيما اذا كان من يُراد اعدامه ممن لهم شأن ومكانة في المجتمع.

(المعرّب)

عُقر دورهم ، مخلدين الى الهدوء والسكينة .

وقد يكتفي الباشا بجولة او جولتين من التي وصفنا لينشر الذعر في القلوب ، ثم ينيب عنه في ذلك احد كبار موظفيه ، ويظلّ الاثر واحداً في النفوس ، لتوهم القوم أنّ المتنكّر انما هو الوالي لا سواه .

اذا مات الوالي وهو على رأس عمله

اذا مات الوالي وهو على رأس عمله بادر المحصّل (الدفتردار) ، بوصفه الرئيس المسؤول عن اموال الولاية ، الى وضع يده على تركته ، ريثما يوفد السلطان احد حجّابه (قبوجي باشي) فيتسلّمها منه . غير ان ما يحجز من اموال الولاة ، واموال سواهم من كبار موظفي الدولة ، الذين يموتون وهم قائمون بوظائفهم ، انما ينحصر في اموالهم المنقولة فقط . اما غير المنقولة منها ، كالجوامع والاسواق والقصور وسواها ، فيكون معظمها قد وضع قبلاً في حمىً تعجز يد السلطان عن الامتداد اليها : فوقف بعضها على البرّ ، ووقف سائرها على ذراري المتوفى (وتلك هي المعروفة بالاوقاف الذرّية) [1]

(١) وهي التي ألغاها في سوريا المرحوم حسني الزعيم (المعرّب)

القاضي [1]

هو الممثل الاعلى للقضاء بفروعه الثلاثة : الشرعي ، والحقوقي ، والجزائي . وهو ليس من ابناء الولاية ، ومدة حكمه سنة واحدة فقط ، لا تجدَّد ولا تمدَّد : ففي كل عام يبعث الباب العالي بقاضٍ جديد ، ويأتي مع القاضي كبار موظفيه . ويقيم واهلَه في قصر قديم يعرف بالمحكمة الكبرى [2]

وللقاضي نائب يعيّنه هو ، يجلس للقضاء في الفناء الخارجي لتلك المحكمة ، ويفصل في الدعاوي الصغيرة ، بينما يفصل القاضي في الدعاوي الكبيرة .

وهناك ثلاث او اربع محاكم فرعية موزعة في مختلف نواحي المدينة يتولى فيها القضاء ، بطريقة الضمان ، وبتفويض من القاضي ، جماعة من العلماء المتشرعين ، العارفين التركية ، والملقبين بالافندية . وهم انما يحكمون في الدعاوي الصغيرة المحلية ، او التي يرفعها الى ديوانهم المتخاصمون المقيمون في القرى والاقضية البعيدة عن البلدة ،

---

(١) ويسمّيه الاتراك (ملاّ) ، ومعناه عندهم « القاضي الكبير »

(٢) هي المحكمة الشرعية اليوم ، الواقعة في محلة البندرة ، تجاه الجامع المعروف بجامع القاضي او جامع المهندار .

(المعرّب)

وتستأنف جميع احكامهم الى المحكمة الكبرى .

وليس للقاضي راتب معيَّن ، ولكنه يعرف كيف يستغلّ مقامه ليدرّ عليه الارباح الطائلة ، حتى عن غير طريق الجعالات والهدايا المشروعة . فهو بدعوى وصايته على جميع رعايا السلطان الذين يتوفى ذووهم زمن نيابته ، يضع اختامه على بيوت المتوفين وممتلكاتهم ، حال وفاتهم ، ولا يزيل تلك الاختام حتى يتفق والورثاء على حصة من التركة يدفعونها له بنسبة تخمينها .

ثم هو يتقاضى ايضاً عن كل الدعاوي التي ترفع اليه عشرة في المأئة من المبالغ المختلف عليها ، يدفعها رابح الدعوى دون خاسرها . وهي سنَّة ، أقلّ ما يقال فيها ، انها ولَّدت ابشع انواع الظلم ، لأنه ، اذ كانت مصلحة القاضي مرتبطة بعدد القضايا التي ترفع اليه ، كان من الطبيعي أن يشجّع الناس على الاكثار منها ، طمعاً في زيادة دخله . فنشأ عن ذلك ان جماعة من الطغام الاراذل جعلوا مرتزقهم اثارة المخاصمات والمنازعات بين ابناء الشعب ، ثم تحريضهم على رفع دعاواهم الى المحكمة ، طمعاً ببضعة دريهمات ينفحهم بها القاضي ، تشجيعاً لهم على الامعان في الظلم والاذى .

وكان من ذلك ايضاً انَّ فريقاً آخر ، من ذوي النفوس المريضة

السافلة ، تشجّعوا على اقامة الدعاوي الكاذبة على من يضمرون لهم الحقد والعداء ، لا لسبب سوى الأذى والثأر . ولا سيما ان امثال هذه الدعاوي لا تكلف مقيمها أيّ خسارة او نفقة ، لأن المدعى عليه وحده هو الذي يدفع نفقات الدعوى ، حتى ولو خرج من المحاكمة بريئاً . وهو يدفعها بنسبة مقامه والاهانة الموجّهة اليه ؟ على أن هناك قضاة يقنعون ، في مثل هذه الحالة ، بأجر أقلّ مما يجيزه العرف والعادة ، اذا ما بدا لهم الظلم فاضحاً فاحشاً .

ولما كان البتّ في القضايا المتنازع فيها منوطاً في الغالب بالشهادات الشفهية ، دعت الحاجة الى اشتراء الشهود ، واصبح شهود المحكمة الكذبة ، او « شهود المصطبة »[1] كما نسميهم هنا ، مضرب المثل على التعاضد في الباطل الى هذا اليوم . كما دعت الحاجة الى تساهل القضاة في تطبيق الشرائع بصرامتها ، على الحنث ، ويمين الزور .

ومع أن القاضي ومساعديه لا يقبلون الرُشى علناً ، فانهم يقبلونها سراً . ويكافأ الراشي ، إما بتأجيل الدعوى ، اذا كان الحق بجانب خصمه ، وتعذّر على القاضي ان يصدر قراراً يخالف العدالة مخالفة

---

(١) اشارة الى المصطبة التي في القرب من باب المحكمة (المعرّب)

صريحة، او بالتعجيل في اصدار الحكم اذا ما بدا الحق في جانب الراشي. وفي مثل هذه الحالة، قد ينصف القاضي، فيقنع من الرشوة بالقدر القليل.

على ان ما يُمدحون عليه أنهم يصدرون احكامهم، على الغالب، في جلسة او جلستين فقط. وتتوعَّد قوانين الدولة بصارم العقاب القضاة الذين ينتهكون حرمة الشرائع، ويلطخون سمعة المحاكم العثمانية بارتشائهم وظلمهم. ومع ذلك فمن اراد ان يستنصف من قاضٍ عاتٍ لا بدَّ له، في معظم الاحوال، أن يعاني الرحلة الى الآستانة، ليرافعه هناك. ثم لا بدَّ ان يكون له في الآستانة صديق نافذ الكلمة يسانده لدى ارباب الحلّ والعقد، لينصفوه من خصمه القوي. لذلك نجد الكثيرين يفضلون ان يوسّطوا في امرهم بعض اعيان الحلبيين، رجاء ان يتمكنوا بمساعدة هؤلاء الأعيان، وما لهم من الدالة على القاضي، من أن يخففوا، على الاقل، من وقع الظلم عليهم، ان لم يقووا على دفعه تماماً.

ويُعنى القضاة بأن يغادروا حلب قبيل انتهاء انتدابهم، وقدوم خلفهم، مخافة ان يقوم بين الأهلين من يطالبهم بردّ الاموال التي انتزعوها منه ظلماً وعدواناً. ومع ذلك فقد يُرغم بعض القضاة، عند

عودتهم الى الآستانة[1] ، ان يعيدوا قسماً من الغنائم التي حملوها معهم . وقد عرفت اناساً من ذوي العزائم الصادقة تمكنوا من رفع شكواهم على القاضي الى شيخ الاسلام ، فنالوا حقهم كاملاً غير منقوص .

---

(١) سألنا أحد الفتيان الاذكياء العاملين على طبع هذا الكتاب — وقد برِم ، على ما يبدو ، بالمدّة التي نلحّ عليه بوجوب رفعها فوق الألف — سألنا عمّا يُراد بالآستانة ، ولماذا نجد بعض الكتاب وبعض المعاجم يرسمونها بهمزة مكسورة تليها سين ساكنة (الاسْتانة) ، وهل كتابتها بهذه الصورة خاطئة ، وهل الكلمة عربية هي أم اعجمية ، وإن كانت أعجمية فما معناها ؟

واليكم الجواب الذي اعددناه رداً على تلك الأسئلة . ولعلّ في القراء من يهمه الموضوع فيستفيد من هذا الجواب .

— لفظة الآستانة فارسية الاصل ، وهي تعني « عتبة الباب » ، كما تعني مجازاً ، في الفارسية والتركية ، قصر السلطان ، او بلاط الملك . اما كيف تحوّلت « عتبة الباب » ، الى القصر السلطاني ، فلأن العتبة والبـــاب ، على تجاورهما في الموقع ، يترادفان في الدلالة على مقرّ السلطان . فهناك « العتبات السلطانية » ، وهي التي كان يغالي الكتّاب الاتراك في التنويه بها ، فينزلونها منزلة الافلاك في تعبيرهم التركي اللفظ (عتبهء فلك مرتبهء) أي « العتبة العالية علوّ الافلاك » . وهناك « الباب العالي » ، ومن لا يعرفه او سمع به ؟ فالفرمانات السلطانية تكاد تختم كلها بعبارة : « صدر عن بابنا العالي » .

اذن ، فكلّ من العتبة والباب كان يشير الى قصر السلطان ، او ديوانه ، وبالتالي الى عاصمة السلطنة ، اي الآستانة او اسطنبول .

بقي ان نقول كلمة في « الاسْتانة » .. وحسبنا برهاناً على الخطأ في كتابة هذه اللفظة ، أن قاموس « الفرائد الدرية في اللغتين العربية والانكليزية » ، رغم انه ذكر هذه اللفظة المحرّفة مرتين في قاموسه المشار اليه (مرّة في

وختاماً لحديثنا عن القضاة نقول ان ليس في المحاكم محامون (على نحو ما هو جارٍ عندنا اليوم) بل انَّ كل واحد يدافع عن نفسه. ومع ذلك فقد يستشير المتخاصمون بعض الفقهاء في امر قضاياهم، وتلك الاستشارات تكون، على الغالب، مجانية، اللهمَّ إلاَّ اذا دعت الحاجة الى التقصي في البحث، والتنقيب في السجلّات القديمة للعثور على قضية مشابهة، فحينئذٍ يحق للمستشار أن ينال عن عنائه هدية ما.

اما الحجج الشرعيـة، واما الصكوك والعقود، والرسائل، وسواها من مستلزمات التجارة، فلها كتّاب محترفون يتقاضون عن انشائها اجوراً عرفية.

المفتي

يعيّنه الباب العالي سنةً فسنة. وكثيراً ما ظلَّ المفتي عينه

= حرف الالف ومرة في حرف السين)، ورغم انه رسم بجانب اللفظـة حرف (P.) للدلالة على اصلها الفارسي، لم ينقلها كأخواتها من الالفـاظ الفارسية الى الجدول الخاص الذي افرده لها في آخر قاموسه، حيث تذكر الكلمة العربية (او المعرّبة) وباذائها الكلمة الفارسية التي ترادفها او المنقولة عنها. ولسنا نجد تفسيراً لهذا الاهمال سوى أن واضع القاموس لم يهتدِ الى الاصل الفارسي للكلمة المبحوث عنها، بشكلها الخاطىء الذي رسمها به، فضرب عن ذكرها صفحاً!

(المعرّب)

في منصبه عدة سنوات متتاليات . وهو ، في الغالب ، من ابناء حلب، ومن وجهائها المتشرّعين . يحرص على الظهور بمظهر الأبهة والعظمة، وله من نفوذه الشخصي ، فضلاً عن مقامه الديني ، مكانة مرموقة بين اعضاء الديوان .

وقد يسند هذا المنصب الى شيخ قليل المال ، ولكنه كثير التقى والورع ، فيبدو في مظهر قريب من بساطة الاسلام الاولى : يعيش عيش الدراويش ، معدّلاً نفقاته على قدر دخله الزهيد ، مُعرضاً عن السياسة إلاّ في الندْرة ، لا يرفعه في عيون مواطنيه إلاّ مظهر قداسته وتعففه في تطبيق نصوص الشريعة الغراء .

وتنحصر وظيفة المفتي في أن يصدر الفتاوى في القضايا التي تعرض عليه ، فيُلقى عليه السؤال موجزاً ، في رقعة صغيرة ، ويخطّ هو تحته الفتوى في بضع كلمات . اما أجرة الفتوى فزهيدة جداً ، لا تكاد تتجاوز الشلن الانكليزي الواحد ، ويحرص المفتي كل الحرص على ان لا يتناول شيئاً سواها .

ومعظم هذه الفتاوى انما يستعين بها المترافعون لدعم حقّهم امام القاضي . فان رأى القاضي في الفتوى ما يرضيه ، قبلها باحترام ، وإلاّ تملّص منها بلباقة ، بدعوى أن الامر المستفتى فيه لم يُعرض على المفتي في دقائقه على الوجه الصحيح .

وقد يُضطر القاضي نفسه ، في بعض الاحيان ، ان يستعين بالمفتي لينجده بفتوى يعزّز بها حكماً يلفظه في دعوى خطيرة .

النقيب

او نقيب السادة الاشراف ، ويدعوه (رسل) بزعيم « الرؤوس الخضر Greenheads » اشارة الى عمائمهم الخضراء .

يعيّن النقيب ، الباب العالي . ومدّة انتدابه سنة واحدة ، قد تمدَّد سنة اخرى او اكثر . وهو يحكم في الدعاوي الخاصة بالسادات ، وتُستأنف احكامه الى المحكمة الكبرى (محكمة القاضي) المرجع الاعلى للمترافعين كافةً ، السادات منهم وغير السادات [1] .

---

(١) يتحصّل مما نقله الغزّي في الصفحة ١٩٣ ، من الجزء الثالث من « نهر الذهب » أنّ اول من ألبس السادات العمائم الخضر هو الملك الاشرف شعبان ، وذلك سنة ٧٧٣ هـ (١٣٧٢ م) ، اذ رسم : « أن كل شريف من اشراف الديار المصرية والشامية يسِم عمامته بسِمة خضراء ، توقيراً لهم ، ورعايةً لحرمتهم ، وحفظاً لنسبهم » . وقد كان لهذا الانعام الملوكي اثره البعيد في نفوس القوم ، عظُم به قدر السادات ، وارتفعت منزلتهم في العيون ، ووفرت مهابتهم في الصدور ، وتسابق الشعراء الى مدحهم والتغنّي بفضائلهم ومجادهم . وتعدّدت وقائع السادات مع الانكشارية ، سادات تلك الايام ، وانتهى بعضها بمآسٍ كالتي وصفنا في المقال الذي عقدناه على تلك الطغمة الطاغية . (الناقل)

والعامّة عندنا تسمّيهم « السيدَة » ، ولهم بهذا الاسم حارة بجوار محلة « قسطل المشط » ، لا تزال تذكّرنا بهم وبما غبر من ايام عزهم وفخارهم . (المعرّب)

المحصّل

هو الدفتردار بالامس ، ورئيس الماليـة عندنا اليوم ، ولكنه يختلف عنهما في انه لم يكن يعيَّن لمنصبه تعييناً ، بل كان يتقلده ضماناً لقاء مبلغ يتعهَّد بتأديته الى خزينة السلطان .

ووظيفة المحصل تقوم بجباية مختلف الرسوم والضرائب المفروضة على الرعية ، من ميري على الاراضي الزراعية ، ومكس (جمرك) على البضائع ، وخراج ، او جزية ، على غير المسلمين .

وهذا العمل المتشعب النواحي يضطره الى الاستعانة بعدد من المساعدين ، كتّاباً وجباةً ، يوزّعهم في مختلف اقسام الولاية . وهم يقبضون الرسوم باسمه ويحملونها الى صندوقه .

وللمحصل حق الحكم في القضايا التي تنشأ عن جباية الضرائب. وله في قصره سجن خاص بالذين يمتنعون عن دفع الضرائب في حينها. لذلك تراه يتمتّع بنفوذ عظيم في مركز الولاية وخارجـه . يحيطـه الناس بهالة من الاعزاز والاكرام ، ويسير في ركابه التجّـار والمزارعون ، ويتقرّبون اليه بالهدايا والهبات . وله المقام الثاني ، بعد الوالي ، بين رجال السلك المدني في البلدة . واياه يختار مجلس الادارة ،

المعروف بالديوان ، لتصريف شؤون الدولة وكالةً عند موت الوالي، فيسمّى اذ ذاك متسلماً .

وقد قدّر (دارفيو) ما كان يدفعه المحصّل سنوياً لصندوق السلطان باربعمائة الف ريال (دولار او تالر) من الفضة . وقال عنه ايضاً إنه كان يجني الارباح الطائلة من ضمانه في سني الخصب ورواج التجارة . أما في سني القحط، وكساد الاسواق، فنصيبه الافلاس والفقر المدقع : تصادر امواله ، وأملاكه ، وخيله ، بل عبيده ايضاً ، ويلقى في غيابات السجون ، دون رحمة وشفقة ، او تقدير لمكانته السابقة ، وماضيه الطيّب . ولا يطلق سراحه حتى يفي آخر فلس تعهّد به.

واضاف (رسل) الى ما تقدّم ، انه عرف غير واحد من محصلي الأموال انتهى بهم ضمانهم الى هذا المصير المفجع ، مع ان مبلغ الضمان قد خفض كثيراً عما كان عليه في عهد (دارفيو) .

السردار

هو الممثل الأعلى للسلطة العسكرية في الولاية ، والقائد العام للجيش الانكشاري المحارب . يعينه الآغا الاكبر الذي بالآستانة ، ولا يأتمر بأمر الوالي إلاّ في احوال استثنائية خاصة .

وهو المسؤول ايضاً عن حراسة الاسواق ومراقبتها ، وعن

كل ما يتعلق بالامن في المدينة ، واليه تسلَّم ، كل مساء ، مفاتيح ابوابها . وله ، لهذه الغاية ، دائرة خاصة ، وفرقة صغيرة قوامها بضع مئات من الجنود ، ينتقيهم من بين انكشاريته الاشدَّاء ، يتولون ، بقيادته ، حماية البلدة والمسّ في شوارعها واسواقها ليلاً .

ولهذه الفرقة لباس خاص تتميز به ، ولكنه بعيد الشبه عن بزَّات الجنود المعروفة . ويلبس افرادها في الحفلات الرسمية القلانس الطويلة من اللبَّاد المعروفة « بالقلبق » . غير انهم ، كسائر الانكشارية ، لا يتمرنون على حمل السلاح ، ولا على اي عمل منظَّم من اعمال الجنود .

ولا يظهر السردار إلاَّ مُواكباً . ويتميَّز هو ومواكبوه بعمائم خاصة . وقد يتقدمه ، في بعض الحفلات ، ضابط خيَّال يحمل رزمة من العصيّ المضفورة على شكل الدستجة (Fasces = Faisceau) التي كانت تحمل امام قناصل الرومان ، ما خلا الباطة .

هذا ، ولا نحسب اننا قد وفينا الحديث عن القائد حقه ان لم نلحقه بكلمة عن جنوده : أي عن الانكشارية المقيمين في حلب ، لا من حيث هم افراد من الشعب مسالمون (وقد عرف القارىء عن مسالمتهم الشيء الكثير !) بل من حيث هم جنود محاربون نظاميون .

لقد أسلفنا القول انهم لا يتمرنون ، زمن السلم ، على أي عمل من

أعمال الجنود المحاربين . وذكرنا في الفصل الذي خصصناه بهم ، أنهم منذ أن سمح لهم السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ — ١٥٦٦ م) أن يتزوجوا ، هجر معظمهم الثكنات ، وساكنوا عيالهم ، وانصرفوا الى اعمال التجارة والصناعة .

ونضيف، هنا ، انهم، بفضل انتمائهم الى احدى الفرق (الاوض) التي في الآستانة ، وتقييدهم اسماءهم في سجلاتها ، يتمتعون بكثير من الامتيازات والاعفاءات، غير انهم لا يتناولون، زمن السلم ، راتباً ما[1] .

أما إذا دعاهم داعي الحرب ، فيتعين عليهم ان يلتحقوا بفرقهم ، وان يجهزوا انفسهم بالسلاح اللازم ، وان ينفقوا من مالهم على سفرهم حتى المعسكر ، ولا تدفع لهم رواتبهم بانتظام إلا متى بلغوا ساحة القتال .

مجلس ادارة الولاية المعروف بالديوان

يتألّف الديوان ، او مجلس إدارة الولاية ، من اعضاء طبيعيين، بحكم وظائفهم ، وأعضاء اضافيين .

أما الاعضاء الطبيعيون فهم :

---

(١) خلافاً لما ذكره الغزي ، وهو ما أشرنا اليه في مكانه من الحديث عن الانكشارية الصفحة ١٤٩ . (المعرّب)

الباشا، والمحصّل، والقاضي، والمفتي، ونقيب الاشراف، والسردار.

وأما الاعضاء الاضافيون فهم:

كبار الافندية، وكبار الاغاوات، ونقيب التجار (المعروف بالشهبندر). وأما التجار فلا يدعى منهم الى هذا الديوان إلاّ من تربطه بالباشا أواصر صداقة، أو قرابة، أو من له صلة بأحد كبار رجال المابين.

يلتئم الديوان كلما دعت الحاجة إلى التئامه، واكثر ما يكون ذلك ايام الجمعة صباحاً، في السراي. وترسل رقاع الدعوة الى الاعضاء فرداً فرداً بواسطة قوّاسة الباشا.

وقد جرى الافندية على ان يذهبوا الى الديوان صحبة القاضي. فيجتمعون اولاً في المحكمة، ومن هناك يسيرون نحو السراي، وقد ركبوا الخيول المطهمة، يتقدمهم اصغرهم سناً، ويتبعه سائر الاعضاء بحسب مراتبهم واعمارهم، ويختم الموكب القاضي.

ويدرس المجتمعون في الديوان احوال البلدة، واحوال الولاية بوجه عام. ويتظاهر الوالي بالاهتمام الشديد بكل ما هو جارٍ في مركز الولاية وخارجه، ويلحّ في الوقوف على الحقيقة، كل الحقيقة،

عن حركة السوق ، ومطالب الاهلين ورغباتهم ، وعن سير التجارة ، وعن احوال القرى . فيتلقى عن كل سؤال الجواب المناسب ، على ما تمليه الفطنة والدهاء ، ومقتضيات السياسة !

وبعد ان ينفرط عقد الاجتماع يقصد الباشا الجامع للصلاة ، يواكبه معظم الاعضاء .

الافندية والاغاوات

يسود الاعتقاد هنا انه من اعظم البلاء على البلاد والعباد أن تتآلف المحكمة والسراي ، إذ ان تآلفاً كهذا يشجع كلا الطرفين على الاسترسال في الظلم ، والامعان في الطغيان . وما من قوة تجسر في مثل هذه الحال ان تقف في وجه المعتدين ، وتنتصر للمظلومين ، الا قوة الافندية والاغاوات ، اصحاب الاراضي الزراعية ، ولا سيما اذا كان المعتدى عليهم مزارعيهم انفسهم ، لعلمهم ان الظلم الذي ينزل بأتباعهم اليوم ، سوف يمتد أذاه اليهم غداً .

فضلاً عن ان اعمال الاغتصاب والتعدي كثيراً ما يستغلها الولاة المتعاقبون كسابقة يبررون بها مظالمهم ، إذا ما ضاقت بهم مسالك العيش ، ولم يجدوا امامهم وسيلة اسهل من المصادرة والاغتصاب ، للحصول على ما هم في حاجة اليه من المال .

على ان نفوذ الاغوات قد تضاءل كثيراً في هـذه السنوات الاخيرة. اما الافندية — ومعظمهم من السادات — فما زالوا يتمتعون بنفوذ عظيم. ولقد استطاعوا، بفضل اتحادهم وتضامنهم، ان يؤلفوا حزباً قوياً، يمكننا ان نطلق عليه اسم «حزب البلدة». ويتزعم هذا الحزب، في الغالب، كبير منهم من اصحاب الامـلاك والمزارع، مشهود له بالدهاء السياسي، والحذق في الدس وتدبير المؤامرات؛ وقد اتاحت له اقامته الطويلة المستمرة في هذه البـلاد ان يلمّ بأحوال الولاية، وما يعترض القائمين على سياستها من معضلات ومشاكل، وعرف بدهائه ان يكون المجلّي في حلبة تصارع المطامع، وتنافس الأسر. واذا ما اتفق لمثل هذا الزعيم ان يكون، فوق ذلك، نقيباً للاشراف، عظم نفوذه بطبيعة الحال — ولو ان هـذا المنصب، في ذاته، لا يخوّل صاحبه مكانة تذكر في الحقل السياسي — واستطاع ان هو احسن استعمال رئاسته، ولم يركب متن الغرور والشطط، ان يؤدي لبلدته اجلّ الخدم وانفعها.

بيدَ أن رجلاً كهذا يغلب عليه ان يسيء استعمال سيادتـه ونفوذه، فيلجأ هو ايضاً إلى طرائق الجور والظلم التي طالما انكرها على ارباب الحكم والسلطان، ويخيّب، باهماله وانانيته، آمال من

شايعه طمعاً في حمايته ورفده. فلا تطول لذلك شعبيته، وتعلّق العامة به، بل ترى معظمهم، وان مالقوه خوفاً ورهبة، يضمرون له في نفوسهم المقت والبغضاء. حتى لينسون في جانب ما يقاسون من تعديه، او من نتائج اهماله وتغاضيه، ما كان له في الامس من الفضل في الانتصار لهم، والدفاع عن مصالحهم لدى اعضاء الديوان.

اما الوالي والقاضي فسبيلهما الى هذا الزعيم التزلّف بالصداقة والودّ. اذ لا يريان من مصلحتهما أن يثيرا خصومته لغير حاجة. فينفسح المجال امامه ليقوم بدور الوسيط لدى هذين الرجلين الكبيرين كلما قام خلاف بينهما، مستغلاً وساطته لمنفعته الخاصة او لمنفعة الاهلين.

وهكذا نرى ان مصالح رجال الديوان المتناقضة، وغاياتهم المتعارضة، تتوازن على نوع ما وتتعادل. وبالرغم من هضم الحقوق المتواتر، تسير امور الناس غالباً بعدل وانصاف تكبرهما في حكومة يعتبر سواد الشعب فيها عبيداً اذلاء للسلطة الطاغية الغاشمة.

وقلما تتفق كلمة الاحزاب المختلفة، وتتحد اهدافهم، في أمر يشمل بضرره الجمهور؛ اللهمّ إلا ان يكون ذلك ايام الجدب والجوع، إذ يتواطأ الاغوات، مدّخرو الحبوب، مع اعضاء الديوان، على

احتكارها، وحبسها عن الناس، في سبيل الربح الدنيء، والاثراء الحرام.

اما الشعب المسكين فيبدو في بادىء الأمر صابراً ساكناً، مستسلماً، بقوة ايمانه، الى الاقدار، مكتفياً بالتبرّم، والتذمر مما يعانيه من ضيق وحرمان. حتى اذا ضاق بالغلاء والجوع ذرعاً، ولم يعد في قوس صبره منزع، ثار دفاعاً عن نفسه وذويه، وانفجر كالبركان المضطرم يحرق بحممه اليابس والاخضر، حتى يعجز رجال الحكم عن صدّ تيّاره الجارف، فتعمّ الفوضى، ويختلط الحابل بالنابل، ويضطر بعض من تقع عليهم نقمة العامة بنوع خاص - وربما كان فيهم الوالي نفسه - ان ينشدوا السلامة في الهرب.

على ان حكمة رجال الديوان تحول غالباً دون وقوع امثال هذه الفتن والثورات، لعلمهم أن لا بدّ ان يتردد صداها في عاصمة السلطنة، ولانهم قد عرفوا بالاختبار ان نقمة الباب العالي سوف تنصبّ بكل شدّتها على رؤوس الاغنياء بنوع خاص، لذلك تراهم لا يدعون الامور تبلغ في سيرها هذا الحدّ من الشدّة والخطر.

واني لأذكر يوماً من ايام الجدب والغلاء، اعتلى فيه بعض النسوة المآذن، ساعة الظهر، فاسكتنَ المؤذنين القائمين على شرفاتها،

ووقفنَ مكانهم ينادين بأعلى اصواتهنّ : أن هبّوا يا مسلمون ، هبّوا يا مؤمنون ، الى نجدة نسائكم ! الى غوث اطفالكم ، الى انتشالهم من براثن الجوع والموت ! وما هي الاّ هنيهة حتى كانت الانابر قد حطمت ابوابها ، ونهبت غلالها ، وسلبت كل محتوياتها . وخاف المتسلم نقمة الغوغاء ، (وكان الوالي غائباً) ففرّ من المدينة هارباً [1] .

على أن هناك ولاة لم يكونوا ليرضوا ان يقفوا مكتوفي الأيدي امام مأساة الغلاء ، بل كانوا ينشطون الى نصرة الشعب المسكين ، وانتشاله من براثن الجوع ، والانتقام له من محتكري قوته ومجوّعيه . ولهم في ذلك طرائق طريفة ، اليك احداها ، منسوبةً الى احد ولاة حلب :

فقد زعموا أن هذا الوالي جاءَ حلب ، اول ما جاءها ، والغلاء فيها مستحكم الحلقات ، والمجاعة تهدّدها بشرّ مستطير . فخرج الناس للقائه ، على عادتهم في استقبال كل والٍ جديد . وكان فيهم جماعة من الرعاع ، ما ان لاح لهم وجه الباشا ، حتى أخذوا يصرخون بملء

---

(١) اثبت الغزّي هذه الواقعة اثناء سرده لحوادث سنة ١١٦٤ هـ = ١٧٥١ م ، وذكر انها حدثت يوم الجمعة ، وان الصلاة والآذان قد تعطلتا بسببها (نهر الذهب ، الجزء الثالث ، الصفحة ٢٩٩ — ٣٠٠)

أشداقهم : الرحمة ، الرحمة ! الخبز ، الخبز !

وسار الموكب بين الضجيج والعجيج ، حتى بلغ السراي . فلما تمّت مراسيم الاستقبال ، وتصدّر الوالي في ديوانه ، وجاءه وجهاء المدينة يهنئونه بسلامة القدوم ، سألهم عن سبب استياء الجماهير ، وذاك الصراخ الذي استقبلوه به . فأجابوه جميعاً : « انما سببه المحل الذي نُكبت به كورة حلب ، والاقاليم المجاورة ، في السنوات الاخيرة ، وما نتج عنه من نقص عام في المحصول ، كان من اثره ازمة الخبز التي تعانيها المدينة . » ثم اردفوا قائلين : « ان الواجب ليقضي بأن نحسن التصرف في القليل الباقي ، لنقي المدينة شرّ المجاعة حتى جمع الغلّة الجديدة . فان نحن لم نفعل ، ونفد المخزون قبل ذلك الوقت ، استحال علينا ان نقنع الغوغاء بأن لم يعد في الانابر غلال مخبأة ، وعرّضنا من ثمّ اصحاب القمح لسخط اولئك الطغام وتقمتهم . »

ثم أقسموا برأس السلطان انهم لم يقولوا إلاّ الحق ، ولم ينطقوا إلا بما أوحاه الصدق والاخلاص .

واستمع الوالي الى حديثهم بكل اصغاء ، ووعدهم ان يكون وايام يداً واحدة في كل ما يعود بالخير على البلدة . ثم طلب منهم ان يقدموا له بياناً صادقاً بما لديهم من القمح المدّخر في مختلف القرى .

فقدموه له ، ولكن ليس كما أراده الباشا ، بل كما اوحاه اليهم الحرص والطمع : فلم يذكروا الا مقدار نصف المخزون ...

وما أن تبلّج صبح اليوم التالي حتى فوجىء الناس بالباشا يخرج من قصره ، في موكب حافل ببطانته وفرسانه . وفيما هم يحملقون فيه ، متسائلين فيما بينهم عن سرّ خروجه في مثل تلك الساعة ، وفي ذلك الموكب الفخم ، اذ بهم يرونه ينطلق في طريق القرى التي ذُكرت له اسماؤها في قائمة الامس . حتى إذا بلغ احداها ، أمر رجاله ان ينبشوا الجباب والحفر التي تُطمر فيها الحبوب عادةً ، ويستخرجوا كل ما فيها ويكيلوه . فاما فعلوا وجدوا ان المخزون يوازي ضعف رقم القائمة ! ثم عثروا على مثل ذلك في قريتين اخريين .. واكتفى الباشا بما اكتشف ، وقفل راجعاً الى البلدة ، بعد ان أمر رجاله بأن يحملوا كلّ ذلك القمح الى السوق ، ويبيعوه فيه ، فما دُوّن منه في القائمة ، دُفع ثمنه الى اصحابه ، وما زاد ، دُفع ثمنه اليه .. وسُرّ الاغوات (اصحاب تلك الحبوب) بهذه القسمة ، وحمدوا الله كثيراً ان لم يصادر الباشا كل المخزون ... وكثرت الحنطة في السوق في اليوم التالي ، وتدنت أثمانها الى نصف ما كانت عليه ..

اما حنث الأغوات في يمينهم برأس السلطان ، فقد كان له

حديث عند الباشا ، وكان له حساب عند تصفية الحساب (اه .)

عرفنا من هذه الحكاية ، في جملة ما عرفناه من احوال حلب، في تلك الحقبة من تاريخها ، ان المزارعين ، او كبارهم ، كانوا يلقَّبون بالآغوات [1] .

على انه يتحصَّل مما كتبه الدكتور رسَّل في مكان آخر من كتابه ، أن ذلك اللقب ، انما كان يطلق ، بنوع خاص ، على من كان منهم عضواً في ديوان الولاية ، ويضيف رسل ان لفظة آغا (التركية) كانت كثيرة الشيوع في ذلك العصر ، تطلق دون تمييز على كل آمر ناهٍ من الرؤساء ، سواء أكان من اصحاب الرتب العالية ، كالسردار ، والمحصّل ؛ أم كان دونهما منزلةً ، كرؤساء دوائر الباشا ، والمشرفين على خدمة حريمه وبيته .

على انه لا بدَّ من التنبيه إلى ان الأغوات لم يكونوا يملكون القرى والمزارع ملكاً حراً ، على النحو المعروف اليوم ، بل كانوا

---

(١) ليس هذا اللقب بالغريب عنا ، نحن الحلبيين ، اذ لا يزال بين اظهرنا الى اليوم مزارعون يلقبون بالآغوات ، ممن يملكون القرى في المناطق الكردية ، كآل الكيخيا ، وبرمدا ، وهنانو ، وعابدين ، والكنج ، والكيالي الخ الخ .
(المعرّب)

يستثمرونها بطريقة الالتزام او الضمان ، لآجال محدودة ، على ان تكون لهم غلاّتها وعليهم نفقاتها [1] .

وكنا قد ذكرنا في مستهل هذا الحديث ان نفوذ الآغوات

---

(١) يقول الامير علي الحسني في كتابه « تاريخ سوريا الاقتصادي الصفحة ١٤٩ » ان الاراضي السورية كانت تقسم في بداية سلطنة الاتراك الى قسمين : احدهما يدعى (ديموز) ـ والكلمة يونانية ـ اي الاراضي العائدة الى الجامعة ، وتعتبر ملكاً للحكومة . والثاني يدعى (قسماً) ويعتبر ملكاً للأشخاص . وان اكثر الاراضي السورية ، وخصوصاً ما كان منها واقعاً في الجهة الشمالية ، كانت اراضي (ديموز) .

ويقول الغزي في « نهر الذهب ، الجزء الثالث ، الصفحة ٢٩٢ » بعنوان « وضع حد لقرى المقاطعات » : « وفي هذه السنة (١١٠٤ هـ (١٦٩٣ م) صدرت أوامر الدولة الى ولاتها في حلب ، ودمشق ، وديار بكر ، وماردين ، وآدنه ، وملطيه ، وعنتاب ، وغيرها من الولايات ان تكون قرى المقاطعات الاميرية كالملك لذويها مدة حياتهم . ويجوز لمن اراد منهم ان يبيع قرية من قراه ممن شاء ، فتُوجَّه على المشتري بمنشور سلطاني ، وإذا مات احدهم يقع ما يملكه منحلاً ، فيعرض للمزايدة العلنية ، ويقدّم اولاد الميت على غيرهم ، إذا تساووا بالقيمة . وقد جعلت الدولة على كل قرية من القرى المذكورة مالاً مقطوعاً سنوياً يأخذه صاحبها من أهل القرية على ثلاثة اقساط . وكان هذا العمل من الدولة مساعدة عظيمة للفلاحين ، واستنقاذاً لهم من الجور والظلم ، لأن ارباب المقاطعات كانوا يدفعون مقاطعاتهم في كل سنة التزاماً لمن يرغب ذلك منهم ، فيخرج الملتزم الى القرية ويتسلط على اموال اهلها فلا يبقي ولا يذر . »

(الناقل)

قد تضاءل كثيراً في عهد (رسل) عما كان عليه من قبل . ويقول (رسل) ان الكثير من اسرهم القديمة قد باد وانقرض . وهو يعزو ذلك الى تبذيرهم ، وتوسعهم في الانفاق بما يجاوز حدّ الطاقة ، حفاظاً منهم على نفوذهم كأغوات ، وعلى مكانتهم بين اعضاء الديوان . هذا فضلاً عما كان عليهم ان يدفعوه لصندوق الدولة من ضرائب واتاوات، في سني الخصب والجدب على السواء ؛ وما كان يفرضه الوالي على قراهم ، بين الفينة والفينة ، من غرامات و (عوانات) . كل ذلك كان يستنزف ثرواتهم ، ويكبلهم بأغلال الديون ، حتى يأتي يوم يعجزون فيه عن دفع ما عليهم ، فتصادر اموالهم ومقتنياتهم ، وتنتزع منهم القرى التي كانت في تصرفهم ، وتسلم الى سواهم .

وقد تمرّ الاعوام تلوَ الاعوام ، قبل ان ترى القرى التي انتُزعت من الضامن المفلس ، وجهَ ضامن جديد يحلّ فيها محله . وخلال تلك الفترة ، يكون القرويون قد نزحوا الى ضياع اخرى ، ينشدون فيها ما فقدوه من الامن والحماية في قراهم ، بعد ان غاب عنها ضامنها وحاميها . لذلك ترى اليوم اراضي واسعة ، في تلك السهول الجميلة التي امتازت بها منطقة حلب ، قد تحوّلت من قرى عامرة ، وحقول ممرعة ، الى قفار غامرة ، يزدحم على اديمها الشوك والعلّيق .

فاذا قابلت بينها وبين المناطق الجبلية، حيث تقف الطبيعة بالمرصاد لكل معتدٍ أثيم، راعك ما فيها من زروع زاكية، ودساكر صغيرة زاهية، مزدحمة بأقدام السكان، وأدركت ان لا رقي ولا عمران، إلاّ حيث تخيّم الحرية، والعدل، والامان.

ونختم حديثنا عن الاغوات بوصف العلاقة التي كانت تربطهم بفلاحيهم: فقد كان للآغا ثلثا الغلة، وللفلاح الثلث الباقي (على ان حصة الفلاح هذه كانت عرضة للتبدُّل، زيادة او نقصاناً، بحسب الاتفاق الخاص الذي كان يعقد بينه وبين الآغا).

وكان على الآغا ان يدفع من حصته ضريبة الارض (المعروفة بالميري) بتمامها، وان يتحمّل ايضاً قسماً من (العوانات) التي كان الباشا ينتزعها منه في بعض الاحيان. وكان من حقه، عند تصفية الحساب في نهاية زمن الحصاد، ان يحسم من حصة فلاحيه قسماً مما يكون قد أسلفه على البذار وسواه من مستلزمات الزراعة، وقسماً من (العوانات) التي دفعها. غير انه كان يجيز لنفسه ان يقيّد عليهم كل تلك (العوانات)، بل اكثر مما دفعه منها حقيقة، ثم ان يضيف اليها الفوائد المركّبة عن الدراهم التي يكون قد اقرضهم اياها، بحيث يكبّلهم بأغلال الديون، ليتسنى له ان يسترقّهم الى آخر الدهر!

والحديث عن الفلاحين يستدرجنا الى الحديث عن قراهم. والحديثان متشابكان، مترابطان، يتمم أحدهما الآخر.

إذا استثنينا بعض البيوت، القليلة العدد، المشيَّدة من الحجر، فمعظم مساكن القرية اكواخ حقيرة من الطين، يخالها الناظر اليها من بعيد بيوتاً صغيرة من البلّور. أما شرب الاهلين فمن آبار بعيدة الغور، او من ماء المطر، مخزوناً في الصهاريج.

واذا كان في جوار القرية جدول ماء، أقاموا على جانبيه بستاناً صغيراً. وفي هذا البستان ينصب الآغا خيامه في فصل الصيف، اذا لم يكن في القرية مبيت. هذا في القرى الصغيرة. اما الكبيرة، ففيها للآغا، ولشيخ القرية ايضاً، بيت لا يخلو من بعض شروط الراحة، يتخذونه احياناً منزلاً للمسافرين، ومقراً للموظفين الذين توفدهم الحكومة لمراقبة الحصاد. وفيها كذلك جامع، او معبد صغير. فاذا اتسعت رقعة الارض كثيراً أنشأوا فيها سوقاً، وحماماً، ومقهىً، وخاناً.

اما لباس القرويين فبسيط، وأما سكنهم فأياً كان، وايما اتفق. واما طعامهم فيغلب فيه الخبز الخشن (خبز الطحين المجروش؟)

واللبن ، والحبوب ، والشعير ، والبطيخ . وقلما يذوقون لحم الضأن والخرفان في غير الاعياد . ومعظم ما لديهم من دجاج وبيض يرسلون به الى سوق البلدة ليباع هناك .. وفي الحق انهم لا ينعمون إلا بالزهيد التافه من ثمار اتعابهم . ومع ذلك ، فلهم في الكرم وحسن الضيافة مواقف تشرّف الراتعين في بحبوحة الترف والنعيم . فانهم يقاسمون الغريب الذي يمرّ بهم بعض طعام يومهم ، وتسارع النسوة فتقدم له الماء البارد ، وقد نزعنه من اعمق بئر في القرية ... لا جرم ان للعادة والجهل يداً في تلطيف وقع الشقاء عليهم . فلو ان قوماً آخرين عانوا ، يوماً ، ما يعانون هم من جور ، وشدّة ، وحرمان ، لملأوا الدنيا صُراخاً وعويلاً ، في حين انهم ليحسبون انفسهم سعداء اذا ما رأى الآغا من مصلحته ان يستعطف الباشا ، فيمنع فرسانه من زياراتهم غير المستحبّة لقراهم .. ولكن كثيراً ما يتغافل الاغا عن واجبه نحوهم ، او ان يذهب الاهمال او العجز بالباشا الى ان يترك لجنوده الحبل على الغارب ، ليفعلوا في القرى ما يحلو لهم ، او ما عليه عليهم سخطهم ونقمتهم ، اذا ما انقطعت عنهم جراياتهم ، فينقلبون ، من حماة للامن ، الى لصوص وقطاع طرق !..

ذلك هو اليوم العصيب الذي يخشاه القرويون ، ويحسبون له كل حساب ، ويستسهلون دونه كل الصعاب ، ويستخفّون معه كل بلاء وعذاب .. فما أن تلوح بوادر الخطر ، حتى تأخذهم الرعدة ، ويتولاهم الهلع ، فيهرعوا الى طمر كل ما لا تسمح لهم السرعة بنقله من اشيائهم ، ومرافق عيشهم ، ويبادرون الى هجر قراهم ، ومواطن آبائهم ، ملتمسين السلامة إما في الانضواء الى قرية أعز وامنع ، او في الهرب الى فلاة بعيدة عن مسالك اولئك اللصوص اللئام .

وانه لمشهد تتفطّر له القلوب غماً واسىً ، ان ترى اولئك المشرّدين البائسين ، وقد توقفوا للاستراحة حيثما دعاهم الظل اليها ، متراصين واولادهم وقطعانهم ، يرتجفون هلعاً لكل وقع حافر بعيد .. ويستعدون لاستئناف الهرب حالما يشعرون بدنو الخطر ..

ويمرّ بهم المسافر الاروبي ، وهم على الحال التي وصفنا ، فيقف مدهوشاً ، مشدوهاً واجماً ، ولا يتمالك عن تصعيد زفرات الألم ، والتفجّع ، والغضب [1] .

---

(١) راجع ما جاء في هذا المعنى ، في الصفحة ١٢٨ من هذا الكتاب ، في حديثنا عن الولايات العثمانية حتى عهد التنظيمات .

التجار والصناع [1]

تقضي مصلحة المحصّل ان يخصّ التجار بنصيب من حمايته، وبفضل هذه الحماية تقصر يد الباشا عن ان تمتد اليهم بالغرامات التي يفرضها على سواهم من ارباب الاموال. على ان تلك الحماية لم تنجهم، في بعض سني المجاعات، عن ان يساهموا، مكرهين، في تمويل صندوق، زعم الداعون اليه، انه لتمويل المدينة بالحبوب. ولم يفتهم رفع عقيرتهم بالاحتجاج على تلك الفريضة بدعوى مخالفتها للعرف والعادة.

والتجار في حلب كثيرون، وبعضهم يحسبون من ارباب الثراء. والتاجر الحلبي ولوع بالاسفار، محبّ للمغامرات. فاذا كان شاباً قصد بغداد، او البصرة، وربما بلغ الهند ايضاً [2]. فاذا اكتهل حوّل نشاطه شطر الآستانة، فساير القوافل الحاملة بضاعته اليها. واذا ما اعجزه المرض او الكبر اناب عنه في ذلك أحد عبيده الأمناء.

---

(١) كل ما جاء تحت هذا العنوان منقول عن (رسل)، بعضه من الفصل الثالث، وبعضه من الفصل السابع، من الباب الثاني من المجلد الاول من مؤلفه.

(٢) وفي الامثال الحلبية «أعرجهم وصل الى الهند».

ويدخل في عداد التجار طائفة كبيرة من الغرباء ، يأتونها ، في سيل لا ينقطع ، من كل مدينة تجارية كبيرة في السلطنة ، ويظلّون فيها حتى يفرغوا من تصريف البضائع التي جاؤوا بها ، او من مشترى البضائع التي هم في حاجة اليها . ولا يعجزون ، متى شاؤوا العودة الى ديارهم ، ان يجدوا قافلة تقلهم اليها . فالقوافل متوفرة ، بعضها يؤمّ حلب قاصداً ، وبعضها يدانيها في طريقه الى غيرها ، بحثاً عمّن في حلب من الغرباء الراغبين في مرافقة القافلة للعودة الى بلادهم .

وتنيط شرائع البلاد بالقاضي حق وضع الاختام على تركات التجار وسواهم من المتوفين من ابناء الولاية ، ثم توزيعها على ورثتهم ، بما يفترض فيه من عدل وانصاف .

اما اذا كان المتوفى من التجار الغرباء ، وقد حصلت وفاته في الخان الذي يكون نازلاً فيه ، فيعود للمحصّل حق وضع يده على امواله وبضائعه ، والاحتفاظ بها ، بعد الاتفاق مع القاضي ، الى اليوم الذي يأتي فيه ورثة التاجر الشرعيون ، فيسلمها اليهم .

ويصنّف التجار فرقاً ، بحسب حرفهم وصناعاتهم . ولكل فرقة منهم رئيس يلقّب بالشيخ ، او شيخ الكار [1] . وكانت هذه

---

(١) ذكر المؤلف في الفصل الاول من الباب الأول من كتابه ان

الفرق قد جرت ، حتى عهد قريب ، على ان تنظم مواكب انيقة ، تسير في شوارع المدينة بثيابها المبرقشة ، وشاراتها ، واعلامها ، في بعض الاعياد والحفلات . غير ان ما قام بينها من الخصام والشغب حول حق التقدم في السير ، حمل أولي الشأن ، منذ بضع سنوات ، على اصدار الامر بمنعها .

ومن الصناعات الرئيسية التي تعوّل عليها حلب في تجارتها ، وفي تشغيل العدد الأوفر من ابنائها ، صناعة النسيج بفرعيه : الحريري والقطني . فهناك ، فضلاً عن المصانع الكبيرة ، التي تضم الأنوال الكثيرة ، مصانع صغيرة عديدة ، في كل منها نول او نولان ، أقامها صغار الصنّاع في بيوتهم نفسها . اما الخيط المستعمل في النسيج الحريري والقطني ، فمعظمه من عمل النساء ، يغزلنه في ساعات فراغهنّ من اعمالهن المنزلية : وهناك كثيرات جعلن منه مورد رزقهن الاكبر .

على ان توزيع الحرير والقطن على العدد العديد من بيوت الغزّالات ، يصبح بلاءً عظيماً إذا ما انتشر وباء في المدينة ، اذ

= كل حرفة او صناعة كانت تستقل بسوق من الاسواق الرئيسية القائمة حول الخان الكبير (خان الجمرك) ، على نحو ما لا نزال نراه في بعض تلك الاسواق الى هذا اليوم .

يضطر ارباب العمل الى ايقاف معاملهم ، خوفاً من تسرُّب العدوى اليهم ، إذا ما ظلوا على اتصال ببيوت تلك النسوة ، المعرَّضة تخصيصاً للوباء ، بسوء موقعها ، وضيق مساحتها ، وخلوها من النور والهواء .

العقوبات

ما عرفنا كاتباً ، ممن طالعنا مؤلفاتهم عن الحكم العثماني في هذه البلاد ، عالج هذا الموضوع الخطير ، بما عالجه به (رسل) من دقة وتفصيل .

والفضل في تفرّد (رسل) بهذا البحث ، انما يعود الى ما طبع عليه من حب التنقيب والتنقير ، والتطلُّع في كل ما يعمل ، الى الاجادة والاتقان . فما كان ليرضى ، وقد اسهب في الكلام على الحكم ، ان يمرّ مرَّ الكرام بما هو من مستلزماته ومتمماته ، وهو العقاب .

ولعلَّ في هذه الكلمة ، نقدمها بين يدي البحث ، ما يبرّىء ساحة كاتبه الفاضل ، مما قد يرميه بعضهم ، عند قراءة وصفه المفصَّل عن العقوبات ، من نقص في الشعور ، وعبث بعواطف القراء .

يقول الدكتور باترك :

تعتبر الجرائم التي تستوجب عقوبة الموت نادرة جداً في حلب. فاننا لم نشهد ، خلال السنين العشرين التي قضيناها فيها ، اكثر من

ست حوادث اعدام فقط .

ومع ان القانون يُجيز ، في جرائم القتل ، أن تُستبدل عقوبة الاعدام بغيرها ، عند رضى الأهل الادنين ، فان الفوز بهذا الرضى متعذّر ، ان لم نقل انه مستحيل ، لأنّ حق الثأر للقتيل بقتل القاتل ، يعتبر حقاً مقدساً لا يجوز التنازل عنه بحال من الاحوال .

واني لاذكر حادثة قتل ، تدخّل فيها بعض المقرّبين من الوالي لانقاذ القاتل من الموت ، فما كان من نساء القتيل إلاّ أن جئنَ بثيابه الملطخة بالدماء ، فعرضنها على انظار الباشا ، باكيات معولات .

وظللن على ذلك اياماً ، يقمنَ في كل يوم السرايا ويقعدنها ، مطالبات باسم الله ورسوله ، أن ينفّذ الحكم الصادر ، حتى ارغمنَ الباشا على أن ينزل عند ارادتهنّ ، ويعدم القاتل .

* * *

وطرائق الاعدام المألوفة اربع ، وهي :

الشنق ، والخنق ، وضرب العنق ، والرفع على الخازوق [1]

---

(١) الخازوق عمود طويل ، محدّد الرأس ، يُدخل في دبر المجرم ، ثم يركّز في الارض والمجرم مرفوع عليه ، الى ان يموت فوقه (وهو من اصطلاح المولّدين) .

عن قطر المحيط — للمعلم بطرس البستاني

اما الشنق : فهو العقاب المعتاد لجريمة القتل ، وبه يعاقب ايضاً من يُقبض عليه من الرعاع ، متلبّساً بجريرة العصيان .

وليس للشنق آلة خاصة ، تنصب في مكان معلوم ، او آلة معدة دوماً لمثل تلك العقوبة ، بل انهم يسوقون المجرم الى السوق ، ويعلقونه على اول سارية تعرض لهم يرونها تصلح لمثل ذلك الغرض .

اما القائم بوظيفة الشنق ، فأرمنيّ في الغالب ، ولكنه قد يقع احياناً ، اذا ما التقى الجنود بيهوديّ ، او بمسيحيّ ، اثناء سيرهم بالمجرم الى مكان الاعدام ، أن يكلفوه الى تنفيذ تلك العقوبة ، ليكرهوه على ان يفتدي نفسه من تلك السخرة بمال يدفعه لهم .

واما الخنق : فخاص بالانكشارية . وآلته مرسة تُعقد حول العنق ، ثم عصا تولج بينهما ، وتدار دوران العجلة ، حتى يشتدّ على العنق الخناق ، فتزهق الروح .. وكلما خنقوا انكشارياً ، اطلقوا مدفعاً من القلعة ، ايذاناً وانذاراً .

وتظل جثث المخنوقين والمشنوقين معلقة اياماً ، ليكون للناس بمرآها عبرة وعظة .

اما ضرب العنق : فعلى كثرة شيوعه في البلاد العثمانية ، ليس في حلب

من يحسنه ، لقلة ممارسة الجلاَّدين له .

وبعض كبار المجرمين ، او العصاة ، الذين يحكم عليهم بقطع الرأس ، تنفيذاً لأمر يصدر عن الباب العالي ، تُسلَخ جلود رؤوسهم ، بعد قطعها ، وتحشى بما يحفظ لها ، ولو بعض الشَبَه باصحابها ، وتُرسل الى الآستانة ، تزلفاً الى من بعث في طلبها .

وفي المعارك التي تنشب في جوار البلدة ، بين الجند والبدو ، او سواهم من قطَّاع الطرق المسلَّحين ، يجتزّ الجنود احياناً رؤوس من يصرعون منهم ، ويدخلون بها المدينة ، مرفوعة على أسنَّة الرماح ، دخول الظافرين .

أما عقاب الخازوق : فيكاد ينحصر بالاكراد ، او سواهم من الجناة

السفاكي الدماء ، القساة القلوب .

وينفّذ هذا العقاب الولاة انفسهم ، عند تنقّلهم في ارجاء الولاية ، بوصفهم حكاماً عسكريين ، يحقّ لهم اصدار الاحكام العرفية . وقد يُرغمون المجرم ، اثناء سوقه الى ساحة الاعدام ، أن يحمل بنفسه الخازوق الذي سيرفع عليه .

على أننا نحمد الله أن حلب لم تألف امثال تلك المشاهد المؤلمة . ولكنّ القوم فيها ما زالوا يذكرون أن والياً ، يعرف بحسين

باشا، كان قد حكم حلب منذ عهد غير بعيد، رفع، في يوم واحد، عشرين كردياً معاً على الخازوق، في بقعة قريبة من حلب. وان كثيراً من اولئك الاكراد ظلوا يعانون آلام النزاع الساعات الطوال، وليس يعلم غير الله كم كان سيستمرّ عذابهم، لو لم يرضَ الوالي أنّ يضع حداً له، بسماحه، لمن يريد، أن يرميهم بالرصاص. غير أنه لم يسمح ان تنزل جثثهم وتدفن، فظلّت عالقة بأوتادها، مشهداً تشمئز منه النفوس، وتهلع القلوب!

ولقد كان من عادة هذا الوالي، كلما قام بجولة في انحاء الولاية، ان يسوق معه المجرمين المحكوم عليهم بالموت، فيرفع واحداً منهم على خازوق ينصبه في كل محطة ينزلها، ويغادره معلقاً عليه الى ان يموت، وتفترسه الطيور الجوارح، لأن الوحوش لا تستطيع ان ترقى الى الجثة لطول العمود. وقد استحقّ هذا الباشا، لكثرة من أماتهم تلك الميتة الشنعاء، أن يلقّب «بالخازوقجي باشا».

هذا كان يعاقب القتلة والمتمردون ...

أما السرّاق — والسرقة من الجرائم النادرة في حلب — فعقابهم

قطع اليد، احياناً. اما في الاغلب، فالضرب بالعصا (وهو ما يعرف بالفَلَق). وذلك هو العقاب المعتاد لصغار الذنوب ايضاً.

وطريقته أن يُلقى المجرم على ظهره، وتُحصَر رجلاه، وهما عاريتان، في آلة خشبية، تلزّ كعبيهما حتى يتلاصقا. ثم ترفع ساقاه، وهما على ما وصفنا، ويقف رجلان على جانبيه، يتعاقبان في ضرب اخمص قدميه، بعصيّ شبيهة بعكا كيز السير الصغيرة.

ويكون الضرب احياناً برفق، كتأديب خفيف. ولكنه قد يقسو احياناً الى اقسى حدود القسوة. ويحدّد الحكم الصادر عدد الضربات، غير انه كثيراً ما يشفع أحد الحاضرين في المجرم، قبل ان يتمّ الحدّ المفروض، ذلك لأن الضرب، ان لم يجرِ بحضرة القاضي، جرى في الغالب، على مسمع منه.

وقد يعاقب الانكشارية احياناً، كما يعاقب بعض النساء، بالضرب على ظهورهم، او على اعجازهم.

ويقول (رسل): «ان هناك عقوبات بدنية اخرى، معروفة في البلاد العثمانية، ضربنا عنها صفحاً لعدم شيوعها في حلب.»

النفي والتغريب: وينهي المؤلف حديثه عن العقوبات «بالنفي»، فيقول

عنه انه يكاد ينحصر في المشاغبين من اعضاء الديوان، اذا ما استفحل شرّهم وأريد التخلص منهم، وانقاذ المدينة من عيثهم وافسادهم. وطريقتهم في ذلك انهم يفاجئون المحكوم به على غرّة، ودون سابق

انذار ، بعد ان يكونوا قد استصدروا الامر بالنفي من الباب العالي. فينتزعون الرجل من بين اهله وذويه ويسيرون به مخفوراً بضعة اميال عن المدينة ، ثم يدعونه وشأنه ليتابع بنفسه الطريق الى المنفى الذي حُدد له[1] . واكثر ما يكون هذا المنفى جزيرة قبرص او احدى مدن الساحل السوري .

★ ★ ★

هذه صفوة المواضيع التي تناولها بالبحث الدكتور رسل في الفصل الذي خصه بولاية حلب ، كما كانت عليه يوم اقام واخاه فيها. وبها نهي كتابنا .

---

(١) يسمّى هذا النفي ، بالشرع الاسلامي ، « التغريب بلا اهل وعشيرة وجارية » ، ويدوم غالباً عاماً واحداً .

(المعرّب)

فهرس الكتاب

	الصفحة
تصدير ؟ بقلم عبدالله يوركي حلاق	٣ — ١٠
اغلاط مطبعية وتصحيحها	١١ — ١٣
المقدمة	
مقدمة ثانية :	
التعريف بمؤلف الاخوين الطبيبين (رسل)	١٤ — ٢٥
الافرنج في حلب في القرن الثامن عشر	
مواضيع البحث :	٢٧
الافرنج المقيمون في حلب	
اللغة الشائعة بينهم	٢٨
لباسهم	٢٩
الوكالة التجارية الانكليزية	٢٩ — ٣١
الوكالة التجارية الفرنسية	٣٢ — ٣٥
الاديار	٣٥ — ٣٦
الهولانديون	٣٦ — ٣٧

	الصفحة
البنادقة والتوسكانيون	٣٧ — ٣٨
مساكن الافرنج	٣٨ — ٣٩
طعامهم	٣٩ — ٤٢
حياتهم الاجتماعية	٤٢ — ٤٤
تآلف الافرنج وتآخيهم	٤٤ — ٤٧
الانكليز وما اختاروه من انواع الرياضة	٤٨ — ٥٦
المعاهدات مع الباب العالي المعروفة بالامتيازات الأجنبية	٥٦
زيارات القناصل الرسمية لرجال الحكم والسلطان	٥٧ — ٦٤
الافرنج والسوقة	٦٥ — ٦٦
الافرنج وقطاع الطرق	٦٦ — ٦٧
الافرنج والولاة في الأحوال الشاذة	٦٨ — ٦٩
الافرنج والامراض الوافدة	٦٩ — ٧١

ذيل اول

في الطاعون والطريقة التي استسنها الافرنج في توقي عدواه

كيف وضع باب الطاعون	٧٣ — ٧٦
وصف الطاعون	٧٦ — ٧٩

الصفحة

طريقة الافرنج في الوقاية من الطاعون ٨٠ — ٩٥
نبذة من تاريخ الطاعون ٩٥ — ١١٤

ذيل ثانٍ

في الولايات العثمانية في القرن الثامن عشر

وهو قسمان ١١٥ — ١١٦
قسم اول : يبحث في الولايات العثمانية بوجه عام
وقسم ثانٍ : يبحث في ولاية حلب بوجه خاص

القسم الأول من الذيل الثاني

في الولايات العثمانية حتى عهد التنظيمات ١١٧

مواضيع البحث :

الولايات العثمانية حتى عهد التنظيمات ١١٧ — ١١٨
تقسيم سوريا الى باشاويات ١١٨
اركان الحكومة الثلاثة ١١٩
بيع مناصب الدولة بالمزايدة ١١٩ — ١٢١

	الصفحة
ما جرّه هذا النظام الفاسد على البلاد من بلاء	١٢٢ — ١٣٢
حكاية مقتل أسعد باشا العظم	١٣٢ — ١٤٣
الانكشارية ونبذة من تاريخهم	١٤٣ — ١٤٤
كيف بدأوا وكيف انتهوا	١٤٤ — ١٦١

القسم الثاني من الذيل الثاني

ولاية حلب في القرن الثامن عشر

مواضيع البحث :

الباشا او الوالي	١٦٢
حدود الولاية وسعتها	١٦٣ — ١٦٥
معاش الباشا	١٦٥ — ١٦٧
تنكّر الولاة وعسّتهم	١٦٨ — ١٦٩
إذا مات الوالي وهو على رأس عمله	١٦٩
القاضي	١٧٠ — ١٧٥
المفتي	١٧٥ — ١٧٧
النقيب (نقيب السادة الاشراف)	١٧٧

	الصفحة
المحصّل (رئيس المالية اليوم)	١٧٨ — ١٧٩
السردار (قائد الجيش الانكشاري)	١٧٩ — ١٨١
مجلس ادارة الولاية المعروف بالديوان	١٨١ — ١٨٣
الافندية والاغوات	١٨٣ — ١٩٣
حياة القرى	١٩٤ — ١٩٦
التجار والصناع	١٩٧ — ٢٠٠
العقوبات :	٢٠٠ — ٢٠١

فهرس عام

للمواضيع الرئيسية التي عالجها (رسل) في الطبعة الثانية من مؤلفه عن حلب ، وعدد الصفحات التي ملأها كلُّ فصل من فصول كتابه ، في كلا مجلديه ، ثم عدد التعليقات الملحقة بكل من المجلدين ، وعدد الصفحات التي ملأتها تلك الملحقات فيهما .

عدد الصفحات

— الباب الأول —

في وصف المدينة ونواحيها

الفصل الاول

— وصف المدينة —

درجة ارتفاعها عن سطح البحر — موقعها الجغرافي — نهر قويق — اسوارها — ابوابها — اطرافها الجبلية — شوارعها — جوامعها — خاناتها — اسواقها — مقاهيها — مساكنها : القصور او السرايات — مساكن الحريم — بيوت الآغاوات — بيوت التجار — بيوت المسيحيين — بيوت اليهود — القيصريات — قلعة حلب ، وغيرها، وغيرها. ٤٠

الفصل الثاني

(من الباب الاول)

— القناة والبساتين ونواحي حلب —

ماء الشرب الجاري في القنوات — القساطل —

٤٠

عدد الصفحات

مجموع الصفحة السابقة ٤٠

تابع الفصل الثاني

(من الباب الاول)

الآبار — البساتين على ضفاف النهر والقناة — جنائن الفستق — المقالع : الحجر والكلس والفخّار — تراب الهلّك — وادي الملح (الجبّول) — هويّة عنجار او (مغارة عنجار) — الينابيع المعدنية على طريق الاسكندرونة وكلّس — وصف موجز للساحل والبرّ .

٢٢

الفصل الثالث

(من الباب الأول)

فصول السنة في حلب ، والزراعة ، ومختلف منتجات البساتين والحقول فيها —

فصول السنة — الرياح الحارة — الأمطار والعواصف والبَرَد — الحوادث الجوية — الزلازل — التربة والزراعة —

٦٢

عدد الصفحات

مجموع الصفحة السابقة ٦٢

تابع الفصل الثالث

(من الباب الأول)

الاهراء في جوف الارض — طواحين الماء — اصناف المزروعات : القطن ، التبغ ، الزيتون ، الكرمة الخ — زيت الخروع والسمسم — الفستق — التوت — الرمّان والتين الخ — البرتقان والليمون وحفظهما داخل البيوت في الشتاء — الجذور الصالحة للاكل والبقول .

٣٣

الباب الثاني

— سكان المدينة —

الفصل الأول

— سكان المدينة بوجه عام —

عدد السكان ـ لغة الحديث ـ القدّ ولون البشرة ـ

٩٥

عدد الصفحات

مجموع الصفحة السابقة ٩٥

تابع الفصل الأول

(من الباب الثاني)

لباس الرجال ـ العمامة ـ لباس النساء ـ زينتهنّ وحليهنّ ـ صبغ الأظافر والحواجب والاهداب والذقون ـ العطور ـ تحجّب النساء خارج البيت ـ طعام الاهلين ـ طريقة عمل اللبن والقيمق ـ القهوة ـ التبغ ـ التركيلة العجمية ـ قلة استعمال الافيون ـ الحشائش المسكرة المستعملة مع التبغ . ٣٥

الفصل الثاني

(من الباب الثاني)

ـ سكان المدينة بوجه عام (تتمة) ـ

الحمامات ـ طريقة الاستحمام ـ التخلّص من الشعر ـ الزغاريد (وهي طريقة النساء في التعبير عن الفرح) ـ حياة الخمول والبعد عن الحركة والنشاط ـ الالعاب والملاهي ـ

١٣٠

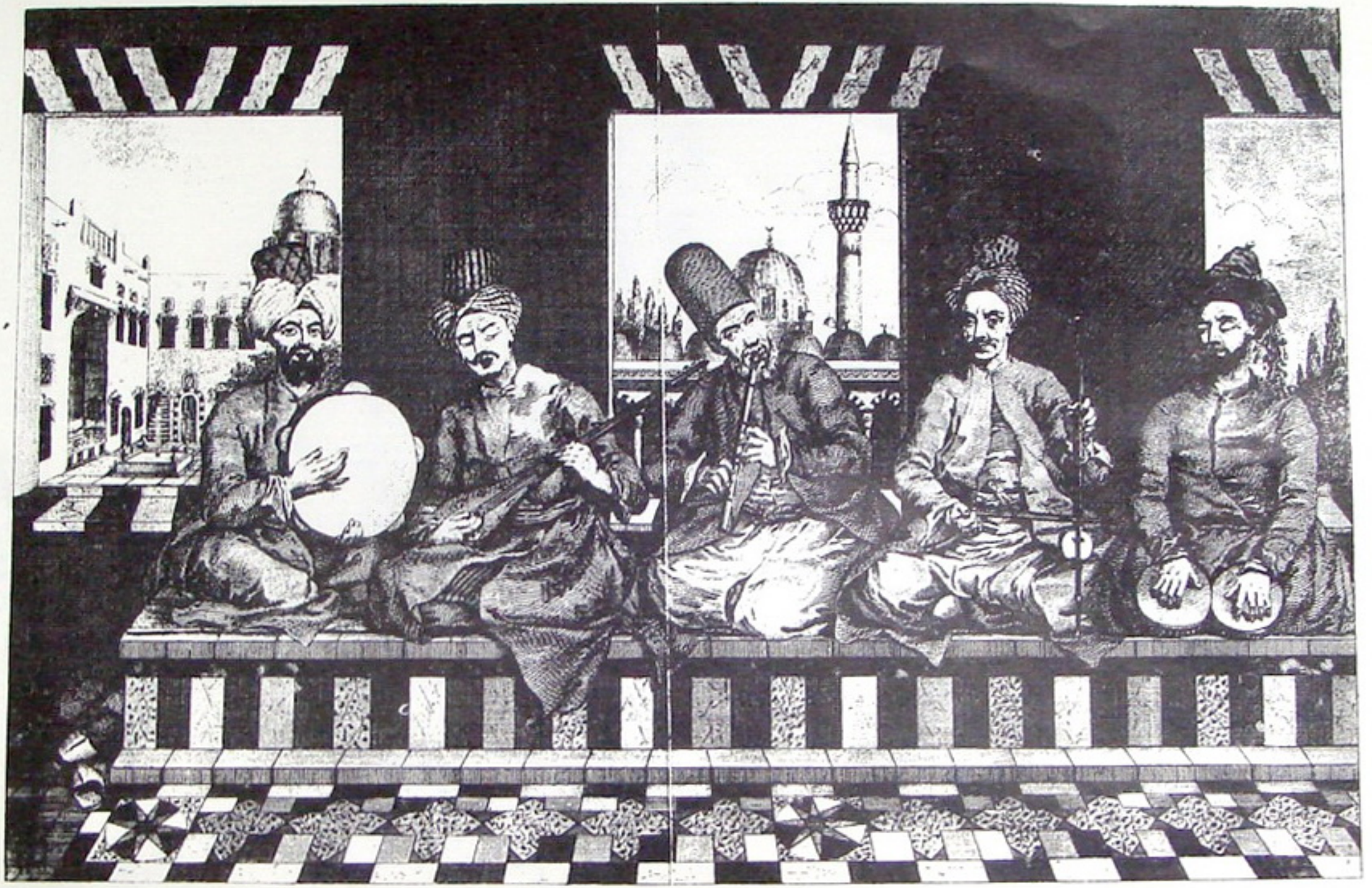

ارباب الطرب وفي ايديهم المعازف من طنبور وناي ورباب ودف ونقارة
وقد لبس كل منهم اللباس الخاص بطبقته الاجتماعية ومذهبه

عدد الصفحات

مجموع الصفحة السابقة ١٣٠

تابع الفصل الثاني

(من الباب الثاني)

الرقص ـ عدم التلكؤ في العودة الى البيت مساءً ـ الفراش ولباسه ـ ملاهي المقاهي : القره كوز ـ الحكواتي ـ الموسيقا التركية ومختلف آلاتها ـ المطربون ومعازفهم كما يظهرون في الرسم ـ المشعوذون والمضحكون الخ الخ . ٢٧

الفصل الثالث

(من الباب الثاني)

ـ الحلبيون المسلمون ـ

مميزات السكان المسلمين ـ العثمانيون ـ العلماء ـ الآغوات ـ التجار ـ الصناعات المختلفة ـ الاعراب ـ التركمان الخ الخ ـ طراز عيش المسلمين ـ الزيارات الرسمية ـ الولائم الخ ـ طعام عامة الناس ـ المحادثات الليلية ـ تجنب الحديث عن الديانة والنساء ـ السكر غير عامّ . ٢٨

١٨٥

عدد الصفحات

مجموع الصفحة السابقة ١٨٥

الفصل الرابع

(من الباب الثاني)

— الحلبيون المسلمون (تتمة) —

الحفلات الدينية — الصيامات — الاعياد — المحافظة على صوم رمضان — الوضوء والصلاة — الذهاب الى الجامع المآذن — الطهور — الزكاة ـ الدراويش ورقصهم ـ المجاذيب بُعد المسلمين عن التبشير — التساهل الديني في تركيا — الخصيان — الرياضة البدنية ـ لعب الجريد ـ اخلاق المسلمين وطباعهم ـ الرقيق ـ الضيافة ـ التسليم الى الاقدار عند حلول المصائب ـ ٥٠

الفصل الخامس

(من الباب الثاني)

— الحَرَم —

الدخول الى الحَرَم ـ حَرَم كيخياسي ـ زيارات النساء

٢٣٥

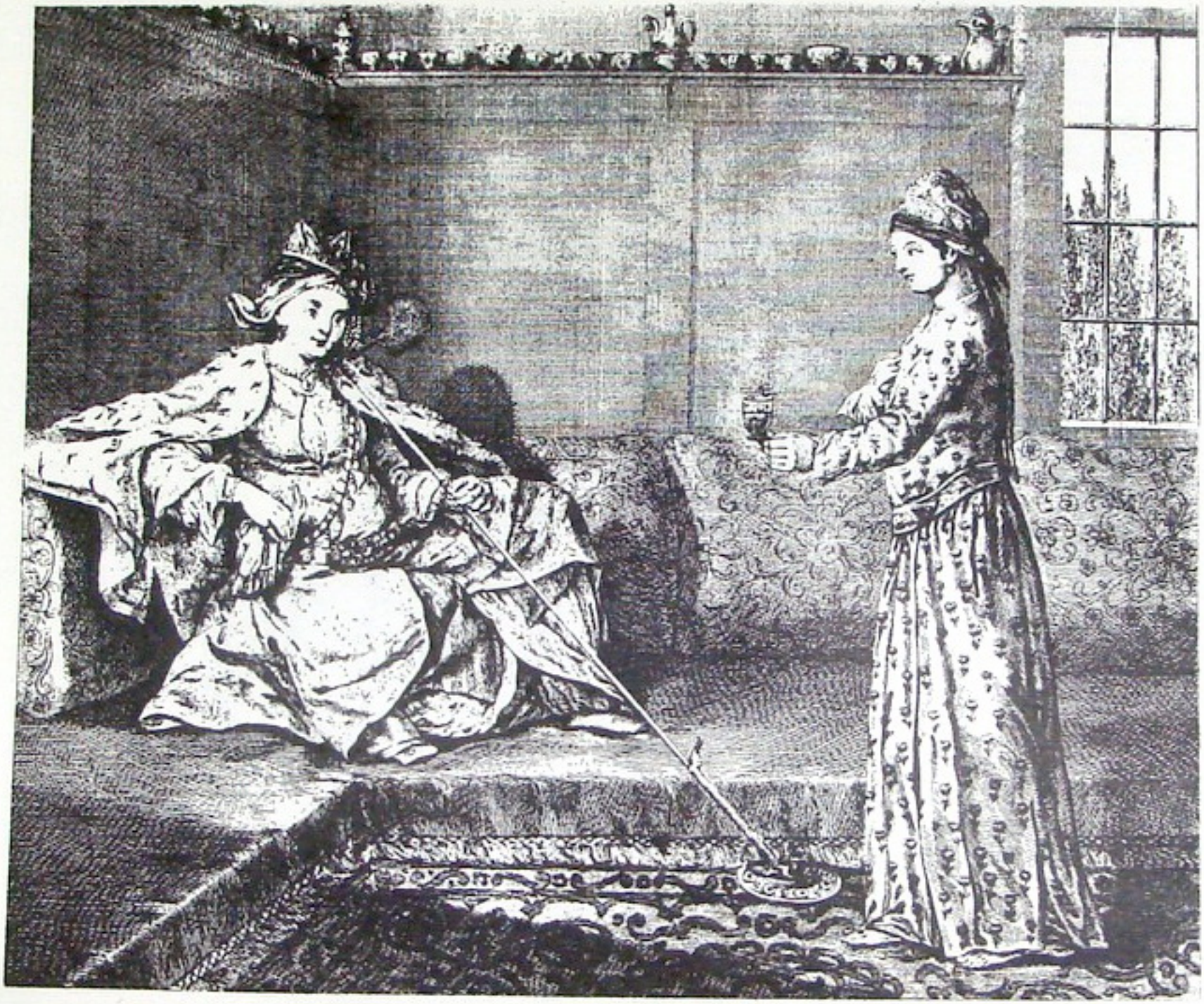

سيدة نبيلة وقد ارتدت الثياب الحلبية الانيقة ، وتحلت بعقود اللؤلؤ
وهي تدخن الغليون ، وأمامها وصيفتها تقدم لها فنجان القهوة

عدد الصفحات

مجموع الصفحة السابقة ٢٣٥

تابع الفصل الخامس

(من الباب الثاني)

الصباحية ـ عناية النساء بالرجال في الحَرَم ـ ملاهي النساء ـ البيَّاعات المتجولات ـ محافظة الرجال على الحشمة والادب في محضر النساء ـ إذا مرض المسلم لجأ الى مُخدع الحرم ـ وصف لزيارة الطبيب واستقباله عنـد دخوله الى الحرم ـ مشاغل النساء العادية وملاهيهنَّ ـ الملاهي خارج الحرم ـ دسائس النساء وحيلهنَّ ـ تثقيف النساء ـ ملابس النساء ـ الرقيق النسائي ـ ملاحظات عن ثورات الحب في تركيا ـ ٤٠

الفصل السادس

(من الباب الثاني)

ـ الحَرَم الاسلامي (تتمة) ـ

تعدُّد الزوجات ـ الطلاق ـ نفقات الزوجات ـ

٢٧٥

عدد الصفحات

مجموع الصفحة السابقة ٢٧٥

تابع الفصل السادس

(من الباب الثاني)

حفلات الزواج — مقارنة تقديرية للسعادة الزوجية في البلاد الاروبية والبلاد العثمانية — النساء قلما يتدخّلن في السياسة — الاحترام الذي تلقاه الست الكبيرة في العيلة — تعدد الزوجات والنسل — حفلات الولادة — حفلات الدفن — الولولة — زيارة المقابر . ٣٧

الفصل السابع

(من الباب الثاني)

— نظام الحكم في حلب —

حدود الباشاوية (الولاية) — واردات الحكومة — تخفّي الباشا وجولاته في المدينة — القاضي والمحاكم القضائية — المفتي — نقيب الاشراف — ديوان الولاية — العسكر —

٣١٢

عدد الصفحات

مجموع الصفحة السابقة ٣١٢

تابع الفصل السابع

(من الباب الثاني)

الباشا ليس مطلق الحرية للحكم في الناس — الدسائس في الديوان — الثورات من جراء نقص الغلال — العقوبات — تقلّص المبادىء السياسية القديمة في السلطنة العثمانية — نبوءة عن زوال السلطنة — كثرة تبديل الباشاوات تسبب اضراراً كثيرة في الولايات — النواحي الجبلية أقلّ عرضةً لضغط الحكام، وأزكى زرعاً — شقاء الفلاحين — هجرة القرى الصغيرة من جراء اعتداءات الجنود الخيالة المطرودين من الخدمة .

٣٢

مجموع صفحات المجلد الاول ٣٤٤

	عدد الصفحات
مجموع الصفحة السابقة	٣٤٤
ضُمّ الى المجلد الأول: /٨٤/ ملحقاً ايضاحياً عدد صفحاتها	١٠٠
ضُمّ الى المجلد الاول: حاشيتان:	
الاولى: تاريخ تأسيس شركة الشرق الانكليزية	٨
والثانية: أرصاد جوية لعامي ١٧٥٢ و ١٧٥٣	١٢
المجموع العام لصفحات المجلد الاول	٤٦٤

عدد الصفحات

الباب الثالث

وهو يتحدَّث عن الافرنج المقيمين في حلب ، وعن المسيحيين الوطنيين ، وعن اليهود الوطنيين ، وعن حالة العلوم والآداب ، وعن حالة الطب ، فيها.

الفصل الأول

(من الباب الثالث)

— في الافرنج المقيمين في حلب —

اللغة الايطالية هي الشائعة في الحديث بينهم — الوكالتان الانكليزية والفرنسية — الأديار — الهولنديون — البنادقة والتسقانيون — بيوت الافرنج ـ موائدهم — مجتمعاتهم النسائية — ملاهي الانكليز ورياضاتهم — المعاهدات مع الباب العالي — وصف لحفلات الاستقبال التي يقيمها كل من الباشا والقاضي والمحصّل للقناصل — حفلات الاستقبال الشعبية التي تقام

عدد الصفحات

مجموع الصفحة السابقة

تابع الفصل الأول

(من الباب الثالث)

تابع الافرنج

للقناصل الجدد عند دخولهم حلب — الافرنج يعيشون بحرية في المدينة ويسافرون بامان — قلما يصابون بالامراض الوافدة العامة . ٢٧

الفصل الثاني

(من الباب الثالث)

— في المسيحيين الوطنيين في حلب —

عدد المسيحيين الوطنيين — كنائسهم — الروم — تأخر أحوال هذه الطائفة — اللغة اليونانية لغة مهملة — الارمن : تمسكهم بأصوامهم — اعيادهم — السريان — الموارنة — اصوام الروم والسريان والموارنة — الاديار — الراهبات —

٢٧

عدد الصفحات

مجموع الصفحة السابقة ٢٧

تابع الفصل الثاني

(من الباب الثالث)

تابع المسيحيين

لباس الكهنة — المطارنة — المرسلون اللاتين ـ الوكلاء ، او النواب العامون عن الطوائف المسيحية ـ الضغط على المسيحيين مبالغ فيه ـ طراز عيشهم ـ النساء المسيحيات ـ اخلاق الرجال ـ التراجمة ـ وصف عرس ماروني ـ تربية الاطفال ـ حفلات الدفن ، وغيرها ٣٠

الفصل الثالث

(من الباب الثالث)

— في اليهود الوطنيين في حلب —

عدد اليهود — الكنيس — مخطوط قديم للكتاب المقدس — لباس اليهود — الحرف العبري يُستعمل للكتابة

٥٧

عدد الصفحات

مجموع الصفحة السابقة ٥٧

تابع الفصل الثالث

(من الباب الثالث)

تابع اليهود

العربية — قاما يتعاطى اليهود اعمالاً يدوية — ينصرفون خاصة الى اعمال الصرافة والتجارة — قناعتهم في اكلهم — الطبقة السفلى منهم وسخة قذرة — النساء — القس الأكبر او الخاخان — يوم السبت — الصيامات — الصوم الكبير الذي يدوم ستة ايام — الصيامات الاختيارية - نفوذ اليهود في تركيا — الزيجات اليهودية — الدسائس — الاعتقاد بأعمال الارواح الشريرة والتعويذ — عناية اليهود القصوى بمرضاهم — حفلات الدفن الخ —

٣٠

الفصل الرابع

(من الباب الثالث)

— حالة العلوم والآداب في حلب اليوم —

تاريخ دخول العلوم والآداب في البلاد العربية — اهمال

٨٧

عدد الصفحات

مجموع الصفحة السابقة ٨٧

تابع الفصل الرابع

(من الباب الثالث)

تابع حالة العلوم والآداب

الاتراك لها ـ انتعاشها بعض الشيء في القرن الحاضر ـ المدارس ـ المعاهد العليا ـ المكتبات . اهتمام بعض التجار بجمع المخطوطات الادبية ـ علم اللغة ـ علم الكلام ـ علم الفقه ـ علم الهيئة (علم الفلك) ـ علم التنجيم ، او صناعة احكام النجوم ـ السحر والرمل والفأل ـ العلوم الرياضية العلوم الطبيعية ـ التاريخ والجغرافيا ـ علم الشعر (القريض) ٢٦

الفصل الخامس

(من الباب الثالث)

— حالة الطب في حلب —

دخول الطب اليوناني في البلاد العربية — متعاطو

١١٣

عدد الصفحات

مجموع الصفحة السابقة ١١٣

تابع الفصل الخامس

(من الباب الثالث)

تابع حالة الطب

الطب في حلب — الكتّاب العرب الاطباء — الطب الحديث — الأمراض المزمنة — الاطباء المختبرون — الجراحة ـ اخراج الحصى من المثانة — الفِصادة — الحِجامة — الجِبارة ـ ٣٠

الباب الرابع

وهو يتكلم عن ذوات الاربع ، وعن الطيور ، وعن الاسماك ـ وعن الحشرات ـ وعن النباتات والاغراس التي تنمو في جوار المدينة

الفصل الأول

(من الباب الرابع)

— ذوات الاربع —

الثور ـ الجاموس ـ الغنم ـ الماعز ـ الخنزير البري

١٤٣

عدد الصفحات

مجموع الصفحة السابقة ١٤٣

تابع الفصل الأول

(من الباب الرابع)

تابع ذوات الاربع

الغزال ـ الارنب ـ القنفذ ـ اليربوع ـ الجمل ـ الحمار ـ الفرس ـ الكلب ـ الهرّ ـ الجرُذ ـ الفأر ـ فأر الحقل ـ الوطواط ـ ابن عرس ـ ابن آوى ـ الثعلب ـ الذئب ـ الضبع ـ الفهد ـ النمر ـ الاسد ـ الدب الخ ٤٨

الفصل الثاني

(من الباب الرابع)

— الطيور —

الدجاج ـ طيور الصيد ـ وصف القطا (أو القطاة ، وهو من أصناف الحَجَل) ـ اصناف الصقور ـ السلوى

١٩١

المجلد الثاني

عدد الصفحات

مجموع الصفحة السابقة ١٩١

تابع الفصل الثاني

(من الباب الرابع)

تابع الطيور

(صنف من السمّن) ـ حمام الزاجل (المستعمل قبلاً في حلب) ـ الوزّ البرّي ـ السمرمر (آكل الجراد) ـ وغيرها

١٥

وغيرها

الفصل الثالث

(من الباب الرابع)

ـ الأسماك ـ

أسماك نهر قويق : سمك الحيّات الحلبي المعروف بالحنكليس او السمك الانكليزي ـ نوعان من سمك السلّور (السمك الأسود) ـ الزقزوق ـ القبوضي ـ البنّي ـ الكرسين ـ القاصوري ـ الزريقي ـ العرايس ـ التفتاف ـ

٢٠٦

عدد الصفحات

مجموع الصفحة السابقة ٢٠٦

تابع الفصل الثالث

(من الباب الرابع)

تابع الاسماك

اسماك نهريّ العاصي والفرات واسماك بحيرة انطاكية — الاسماك البحرية من الاسكندرونة . ١٣

الفصل الرابع

(من الباب الرابع)

— الحشرات والذبابات —

الضفدعة — السرطان النهري — السلحفاة — دودة الحرير — النحل — العقرب — ام اربع واربعين — الافعى — البعوض — الجراد — الحرباء — وغيرها وغيرها ١٧

٢٣٦

الفصل الخامس

(من الباب الرابع)

— في النباتات والازهار —

النباتات والازهار في ضواحي حلب ، وبعض ما جمعه منها الاخوان رسل في الجبال الواقعة على طريق الاسكندرونة واللاذقية ، وقد جاءت منسّقة في جداول طويلة ملأت اكثر من ثلاثين صفحة من صفحات الكتاب ، تتخللها رسوم جميلة لطائفة من تلك النباتات والازهار ، وكلها مرتّبة في تلك الجداول ترتيباً فنياً بحسب ارقامها الواردة في مجموعة (لينّه = Linné) العالم النباتي السويدي الشهير (١٧٧٨ — ١٧٠٧) ومتدرّجة فيها صعوداً من ذات الوريقتين الى ذات العشرين وريقة ..... وقد ملأت ٣٥

٢٧١

عدد الصفحات

مجموع الصفحة السابقة ٢٧١

الباب الخامس

— في التقلبات الجوية، والامراض الوافدة —

الفصل الأول

(من الباب الخامس)

— التقلبات الجوية —

الاجهزة المستعملة في الرصد — بيان عام عن تقلبات الجوّ في كل شهر من شهور السنة ، ملخّص عن سجلّ دوّنت فيه تلك الارصاد سحابة تسع سنوات — مقارنات وملاحظات . ١٦

الفصل الثاني

(من الباب الخامس)

التقلبات الجوية على مدار السنة ، في السنين العشر التي تبتدىء بالسنة ١٧٤٢ وتنتهي بالسنة ١٧٥١ . ١٠

٢٩٧

عدد الصفحات

مجموع الصفحة السابقة ٢٩٧

الفصل الثالث

(من الباب الخامس)

نظرة عامة في الأمراض الوافدة بحلب ٨

الفصل الرابع

(من الباب الخامس)

علّة وافدة تصيب الافرنج خاصةً، اسمها «اوكا = Oca»، تدوم في الغالب اربعاً وعشرين ساعة، ثم حبّة حلب الشهيرة «بحبة السنة» . ٩

الفصل الخامس

(من الباب الخامس)

الامراض التي وفدت على حلب في كل من الاعوام الواقعة بين ١٧٤١ و ١٧٥٤ . ١٩

٣٣٣

عدد الصفحات

مجموع الصفحة السابقة ٣٣٣

الباب السادس

— في الطاعون —

الفصل الأول

(من الباب السادس)

نظرة عامة في الطاعون وتفشّيه في حلب ٦

الفصل الثاني

(من الباب السادس)

سير الطاعون في حلب في الأعوام ١٧٤٢ و ١٧٤٣ و ١٧٤٤ ٩

الفصل الثالث

(من الباب السادس)

الوصف الطبي للطواعين التي ظهرت في حلب في الاعوام ١٧٤٢ و ٤٣ و ٤٤ ٨

٣٥٦

عدد الصفحات

مجموع الصفحة السابقة ٣٥٦

الفصل الرابع

(من الباب السادس)

وصف الدمامل الطاعونية ٥

الفصل الخامس

(من الباب السادس)

معالجة المطعونين ١١

الفصل السادس

(من الباب السادس)

نظام العزلة الذي سنَّه الافرنج وجروا عليه في سوريا للوقاية من عدوى الطاعون ١٥

مجموع صفحات المجلد الثاني ٣٨٧

	عدد الصفحات
مجموع الصفحة السابقة	٣٨٧
يضاف اليها :	
٤٣ ملحقاً ايضاحياً . عدد صفحاتها...	٣٩
ملحقان آخران :	
اولهما : في كبار الاطباء الأدباء في العصر العباسي .. (في الشرق)	٢١
وثانيهما : في كبار الاطباء الادباء في العصر الاندلسي .. (في الغرب)	١٣
مجموع صفحات المجلد الثاني ، ما عدا الفهارس	٤٦٠

٥٠٠ / ١٢ / ١٩٦٩

انجزت مطبعة الضاد طبع هذا الكتاب في ٣١ / ١٢ / ١٩٦٩

الثمن ٥ ليرات